

من أدب خطاب الله تعالى في النظم القرآني
إسناد الخير إلى الله تعالى وحذف الفاعل في مقابله
مواطنه وأسراره

الدكتور

أبوزيد شومان

أستاذ البلاغة والنقد المساعد في الكلية

مُتَكَلِّمًا

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه وسلم .

أما بعد ،،،

فهذا بحث عنوانه " من أدب خطاب الله تعالى في النظم القرآني " إسناد

الخير إلى الله تعالى وحذف الفاعل في مقابلة مواظنه وأسراره " .

وقد حاولت فيه أن أجمع مواظنه ، وأن أربطها بالسياق وأن أستخرج بعض أسرار التعبير القرآني في هذه الأساليب متكنا على أقوال العلماء المحققين الذين سمت أرواحهم ، وصفت قرائحهم ، فأخرجوا كوامن الدرر ، ومستور جواهر الأساليب القرآنية ،

وهو الموفق والمعين وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ،،،

منهج البحث

بعد المقدمة مهدت لهذا البحث وذكرت أن كل المفسرين عرضوا لهذه الظاهرة واتفقوا على أن من أهم أسرارها " التأدب في خطاب الله تعالى " وكانت طريقة السير فيه كالتالي :

جمعت مواطن هذه الظاهرة في القرآن الكريم ، فوجدتها في اثنتي عشرة موطناً تقريباً ، وضعتها تحت عنوان : " مواطن إسناد الخير إلي الله تعالى وحذف الفاعل في مقابله " .

درست الستة المواطن الأولى تحت عنوان : " في مواطن الدعاء " .

وكانت هذه المواطن متفرقة في سورة الفاتحة الآية (٦ ، ٧) وآل عمران الآية (٢٦) والأنبياء الآية (٤١) وإبراهيم الآية (٣٦) والشعراء الآيات (٧٧ : ٨٤) لكن يجمعها موضوع واحد هو الدعاء والثناء على الله تعالى ، فكان ذكر الفاعل في الخير والنعم ، وحذفه في الشر مناسباً للمقام ، متناغماً مع نفسية الداعي ، وقد درست كل موطن على حده ، فأبرزت الأسلوب وحددته ، وبينت بعض أسرارها ، وحاولت ربطه بسياقه الذي جاء فيه ، والجو العام الذي يظله .

أما المواطن الستة الباقية فكان كل موطن في موضوع مستقل ، وسياق خاص .

فالموطن السابع : في مدح طائفة من أهل الكتاب في سورة آل عمران الآية (١١٥) .

والموطن الثامن : في قصة سيدنا موسى والخضر عليهما السلام في

سورة الكهف الآيات (٧٨ : ٨٢) .

والموطن التاسع : في خطاب نساء النبي في سورة الأحزاب الآية (٣٠ ، ٣١) .

والموطن العاشر : في رد الرسول (ﷺ) على المشركين في اتهامه بالكذب في دعوى الرسالة في سورة سبأ الآية (٥٠) .

والمواطن الحادي عشر : في تساؤل الجن في سورة الجن الآية (١٠) .

والموطن الثاني عشر : في الحديث عن نفقة المطلقات في سورة الطلاق الآية (٧) .

وقد درست كل موطن على حده ، وبينت بعض أسرارها ، وحاولت ربطه بسياقه الذي جاء فيه .

كما عرضت لموقف الزركشي في كتابه : " البرهان في علوم القرآن " من هذه الظاهرة . وقد تمثل في أمرين :

الأول : أن ينظر إلي آيات هذه الظاهرة ببصر نافذ وبصيرة ثاقبة ويردد ما رده العلماء وينقل عنهم أسرارها وفحاويها .

الثاني : أن يبالغ في توجيه الآيات حتى يخضعها لهذه الظاهرة ، ويدخل فيها ما ليس منها ، فيتكلف التوجيه ، ويتمحل التخريج ، فيوقع نفسه في الخطأ .

إسناد الخير إلى الله تعالى وحذف الفاعل في مقابله

مَلَيْتًا

ذكر المفسرون^(١) أن من طرائق النظم القرآني في خطاب الله تعالى: "إسناد الخير إليه تعالى وحذف الفاعل في مقابله" تأدبا مع الذات العلية في الخطاب بإسناد النعمة إليه تعالى، وفرارا من إسناد الشر إليه تعالى، كقوله تعالى: ﴿...أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾^(٢) فقد أسند النعمة إلى الله تعالى: (أنعمت) ومع الغضب لم يقل: الذين غضبت عليهم، وإنما حوّل الأسلوب إلى ما عليه النظم: لأن الأول موضع تقرب إلى الله تعالى بذكر نعمته. فلما صار إلى ذكر الغضب زوّى عنه لفظه تحننا.^(٣)

— وفي كلا الأسلوبين — ذكر الفاعل في النعمة وحذفه في المقابل — تعظيم لشأن الرب سبحانه، لأن مخاطبته تعالى بإسناد النعمة إليه تعظيم لشأنه، وكذلك ترك مخاطبته تعالى بإسناد الغضب إليه تعالى تعظيم وإجلال، فانظر إلى البلاغة كيف جعلت التعظيم في الإسناد، كما جعلت التعظيم في تركه.

وهي ظاهرة قرآنية، مدح العلماء بلاغتها، ومجدّوا أسلوبها، وبينوا

(١) راجع: مدارج السالكين لابن قيم الجوزية ١٧/١ تح: عماد عامر ١٤٢٤هـ — / ٢٠٠٣م دار الحديث — القاهرة والموافقات في أصول الشريعة لأبي إسحاق الشاطبي ١/٣٣٢ شرح الشيخ عبد الله دراز ١٤٢٧هـ — / ٢٠٠٦م وجلّ كتب التفسير الأخرى.

(٢) سورة الفاتحة ٦، ٧.

(٣) حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي ١ / ٢٢٦ ضبط الشيخ عبد الرزاق المهدي ط أولى ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م دار الكتب العلمية — بيروت.

بعضاً من أسرارها ، والبحث يحاول رصد هذه الظاهرة ، وتأمل جنباتها ، واستنطاق أسرارها ، وقد عُنِيَ بأمرين الأول : رصد مواطن هذه الظاهرة في القرآن الكريم ، والثاني : ذكر بعض أسرارها ، إذ ذكر الكل متعذراً لأن مراد الله تعالى لا يعلمه إلا الله ، وما يحجل حوله العلماء صواب لو وقعوا قريباً من الصواب .

وقد ذكر الشاطبي: أن دلالة ذكر الفاعل في الخير وحذفه في الشرف في خطاب الله تعالى . دلالة تبعية وليست أصلية ، وهي آداب شرعية ، وتخلقات حسنة ، يقرُّ بها كل ذي عقل سليم .^(١)

ومعنى أنها دلالة تبعية ، أن معاني التأدب مع الله تعالى تُستشفُّ من السياق ، وتستنتقها قرائن الأحوال، وهي مواطن بحث البليغ، عندها يحطُّ رحاله ، يفتش عن كوامن الأسرار، ولطائف المعاني ، فضلاً عن المعنى الأصلي ، الذي هو أساس الفهم ، وأصل الدلالة ، وقد سماه الإمام عبد القاهر الجرجاني " معنى المعنى" وهو : أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر.^(٢)

— وأدب الخطاب مع الله تعالى، التزمه منها أنبياء الله ورسله ، وأهل العلم والورع فقد أمر خاتم الأنبياء والمرسلين بذلك منها في الخطاب : " قل إن

(١) الموافقات في أصول الشريعة للشاطبي ٢ / ٣٣٤ .

(٢) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني ص ٢٦٣ ، محمود شاكر ط ثانية ١٠٤١٠ هـ /

ضللت فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فبما يوحى إليّ ربي أنه سميع قريب" (١) فقد أسند الضلال إلي نفسه ، وجعل عقوبته راجعة إليه . وفي الهداية جعل سببها وحي الله إليه ، وقد قال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - لما سئل عن تلك المسألة في المفوضة : أقول فيها برأي ، فإن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان والله ورسوله بريان منه . (٢) ومقولة عبدالله بن مسعود هذه شائعة منتشرة بين العلماء العارفين ، إذ ينسبون صواب آرائهم إلي توفيق الله تعالى ، وخطئهم إلي أنفسهم ، هضماً للنفس ، حتى لا يجرفهم تيار التعالي إلي مهاوي الغرور والعظمة .

وكان ابن جنى رجل جدّ وامراً صدق ، في قوله وفعله فلم يؤثر عنه ما أثر عن أمثاله من رجال الأدب في عصره من اللهو والشرب والمجون ... وكان عفّ اللسان والقلم ، يتجنب الألفاظ المنديّة للجبين ، والعُور من الكلم في تصنيفاته ... ولقد بلغ من أمره أن يغيّر في الشعر ما يستهجن ويقبح ذكره ، ففي بعض كتبه ينشد البيت :

أجندل ما تقول بنو نميرٍ إذا ما الفَعْلُ في است أبيك غابا

والفعل محوّل عن الإير ، وقد تعدّد ذلك لينجو من معرّة هذا اللفظ ، ولو تهيأ له أن ينجو من الإست لفعل . (٣) فإذا كان هذا موقف ابن جنى وأمثاله - ممن سمت أخلاقهم وعفّت ألسنتهم - عند ذكر ما يستقبح في الآداب والفنون

(١) سورة سبأ ٥٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ٣ / ٥٤٥ دار المنار - بدون .

(٣) الخصائص لابن جنى ١ / ١٤ تح : محمد علي النجار - المكتبة العلمية - بدون .

فكيف بمن يخاطب رب الأرباب ؟ !! .

— وينبغي الإشارة إلى أمرين الأول : أن سر التأدب مع الله تعالى يطرد في كل أسلوب أسند فيه الخير إلى الله تعالى وحذف الفاعل في مقابله . يضاف إليه بعض الأسرار التي تتعلق بكل أسلوب على حده ، كما سيظهر من خلال البحث. والثاني : أن إسناد الخير إلى الله تعالى والشر إلى النفس يتحقق في الأساليب الإلهية التي حكاها القرآن الكريم على السنة مخلوقاته ، ولذلك كان عنوان البحث "أدب خطاب الله تعالى بإسناد الخير إليه تعالى وحذف الفاعل في مقابله " أما الأساليب الصادرة منه تعالى ، فإن الخير يسند إليه تعالى كما يسند الشر ، وغالبا ما يسند الشر إليه تعالى عندما يكون المقام فيه تهديد ووعيد ورد على المكذبين والمعاندين . فإنه تعالى يتولى الرد عليهم ، وينسب إلى ذاته العلية البطش والتنكيل بهم ، وبدهي أن عقاب المكذبين ، وتعذيب الكفرة المشركين ، والوعيد والتهديد للمستهزئين ليس شرّاً بل هو خير محض ، لأن عقابهم قد يسوقهم للرجوع إلى الحق ، وعدم التمادي في الضلال ، كما أن عقاب المكذبين عدل محض ، وإن كان ظاهره الشر ، وأيضا فإن عقاب المكذبين قد يسوق غيرهم إلى الاعتبار بهم ، فيلتزمون الحق منهاجا ، وهذا عين الخير أيضا ومما أسند الشر فيه إلى ذاته العلية قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١).

فقد أسند الختم إلى الله تعالى والختم هو : منع الحق أن يصل إلى القلب

(١) سورة البقرة ٦ ، ٧ .

بسبب تناهي الإنسان في اعتقاده الباطل وارتكاب محظور فيورثه ذلك هيئة تمرنه على استحسان المعاصي وكأنما يختم بذلك على قلبه (١) . كما أسند جعل الغشاوة على الأبصار إليه تعالى ، وهي : ما غشى القلب من الطبع والران وغير ذلك. (٢)

وفي قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ (٣) أسند زيادة المرض إليه تعالى وجعل هو فاعلها فقد طبع الله على قلوبهم لعلمه تعالى بأنه لا يؤثر فيها التذكير والإنذار . (٤)

وفي قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (٥) أسند الاستهزاء بالمشركين إليه تعالى ، كما أسند المد في الطغيان إلى ضميره تعالى " يمدهم " .

ومثله قوله تعالى : ﴿ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يَبْصُرُونَ ﴾ (٦) ، ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص ١٤٩ ، راجعه : وائل أحمد عبد الرحمن المكتبة التوفيقية - بدون .

(٢) لسان العرب مائة " غشى " ٣٢٦١/٥ .

(٣) سورة البقرة ٨ - ١٠ .

(٤) حاشية الجمل على تفسير الجلالين ١ / ١٧ - الحلبي - بدون .

(٥) سورة البقرة ١٥ .

(٦) سورة البقرة ١٧ .

يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾. فقد أسند إذهاب نورهم واللعن إليه تعالى ، والآيات في هذا
الموطن أكثر من أن تحصى لكنها تخرج عما نحن فيه من: أدب خطاب الله تعالى
وليست داخلة فيه .

(١) سورة البقرة ٨٨ .

مواطن إسناد الخير إلى الله تعالى وحذف الفاعل في مقابله

وردت هذه الظاهرة في القرآن الكريم في اثنتي عشرة موطناً تقريباً . فقد كان الجمع والإحصاء بمراجعتي للمصحف ، فيمكن أن يزداد على هذا العدد ، والمهم أنها ظاهرة قرآنية لها أسرار وأغراض تستحق البحث والدراسة .

في مواطن الدعاء وردت ست مرات :

الموطن الأول : في سورة الفاتحة في قوله تعالى : ﴿ ... اهْدِنَا الصِّرَاطَ

المُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ... ﴾ آيتنا ٦ ، ٧

الموطن الثاني : في سورة آل عمران في قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ

الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ الآية ٢٦ .

الموطن الثالث : في سورة الأنبياء في قوله تعالى : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ

رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ الآية ٨٣ .

الموطن الرابع : في سورة ص في قوله تعالى : ﴿ وَادْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ

نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ الآية ٤١ .

الموطن الخامس : في سورة إبراهيم في حديثه عن الأصنام في قوله

تعالى : ﴿ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ الآية ٣٦ .

الموطن السادس : في سورة الشعراء في قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي

إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعَمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا
مَرَضْتُ فَهُوَ يَشفِينِ * وَالَّذِي يُمَيِّنُ لِي نَجَاتِي * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي
خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ * رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ * واجْعَلْ لِي لِسَانَ
صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿ الآيات ٧٧ - ٨٤ .

* * *

الموطن السابع : في مدح طائفة من أهل الكتاب في سورة آل عمران في
قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ الآية ١١٥ .
الموطن الثامن : في قصة سيدنا موسى والخضر عليهما السلام في سورة الكهف
في قوله تعالى : ﴿ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ
صَبْرًا * أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ
وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا * وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ
يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فأرَدْنَا أَنْ نُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا *
وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا
صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ
عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ الآيات ٧٨ - ٨٢ .

الموطن التاسع : في خطاب نساء النبي في سورة الأحزاب في قوله
تعالى: ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ
وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا * وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتَهَا
أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ آيتا ٣٠ ، ٣١ .

الموطن العاشر : في رد الرسول على المشركين في اتهامه بالكذب في دعوى الرسالة ، في سورة سبأ في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ الآية ٥٠ .

الموطن الحادي عشر : في تساؤل الجن في قوله تعالى : ﴿ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ الجن ١٠ .

الموطن الثاني عشر : في الحديث عن نفقة المطلقات في سورة الطلاق في قوله تعالى : ﴿ لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْفُلُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَّا آتَاهَا سَيِّجَعُلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ الآية ٧ .

وإليك التفصيل ...

في موطن الدعاء

مواطن الدعاء في القرآن الكريم أسند فيها الخير إلى الله تعالى والشر إلى النفس أو حذف الفاعل ولم يذكر ، وذلك لأن الدعاء سؤال ورجاء فينبغي على الداعي أن يتأدب بأدب الدعاء بأن يهضم نفسه . ويظهر ذله وعجزه وضعفه كما يظهر نعم الله وآلانه وأفضاله وهذا واضح في كل الآيات التي معنا .

ففي الموطن الأول في سورة الفاتحة : ﴿..... اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ .

أسند النعمة إلى الله تعالى : " أنعمت " ومع الغضب لم يقل : الذين غضبت عليهم ، وإنما حوّل الأسلوب إلى ما عليه النظم ، لأن الأول موضع تقرب إلى الله تعالى بذكر نعمه ، فلما صار إلى ذكر الغضب زوّى عنه لفظه تحننا ولطفا ، يقول الآلوسي : (١) " وفي بناء " أنعمت " للفاعل استعطاف فكأن الداعي يقول : أطلب منك الهداية إذ سبق إنعامك ، فاجعل من إنعامك إجابة دعائنا ، وإعطاء سؤالنا وسبحانه ما أكرمه ، كيف يعلمنا الطلب ليجود على كلِّ بما طلب .

لو لم تُردِّ نيلَ ما نرجو ونطلبه من فيضِ جودك ما علمتنا الطلبَ

وهذا هو الموطن الأول في نماذج هذا البحث ، ولذا ترى المفسرين يبدؤون به ويجعلونه أم الباب . ويفيضون في ذكر أسراره كعادتهم عندما تعرض لهم أول قضية في مؤلفاتهم ، وقد ذكر ابن قيم الجوزية ثلاثة أسرار لهذا العدول

(١) تفسير الآلوسي ١ / ٢٢٤ تح : طه عبد الرؤوف سعد ط أولى ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م .

فقال : " وأضاف النعمة إليه ، وحذف فاعل الغضب لوجوه . منها : أن النعمة هي الخير والفضل ، والغضب من باب الانتقام والعدل ، والرحمة تغلب الغضب ، فأضاف إلى نفسه أكمل الأمرين وأسبقهما وأقواهما . وهذه طريقة القرآن في إسناد الخيرات والنعم إليه ، وحذف الفاعل في مقابلتها - الوجه الثاني : أن الله - سبحانه - هو المنفرد بالنعم ... فأضيف إليه ما هو منفرد به ، وإن أضيف إلى غيره ، فلكونه طريقاً ومَجْرِيَّاً للنعمة وأما الغضب على أعدائه ، فلا يختص به تعالى . بل ملائكته وأنبيأؤه ورسله وأولياؤه يغضبون لغضبه ، فكان في لفظه " المغضوب عليهم " بموافقة أوليائه له ، من الدلالة على تفرد الإِنعام . وأن النعمة المطلقة منه وحده ، هو المنفرد بها . ما ليس في لفظة " المنعم عليهم " الوجه الثالث : أن في حذف فاعل الغضب من الإشعار بإهانة المغضوب عليه وتحقيره وتصغير شأنه ، ما ليس في ذكر فاعل النعمة من إكرام المنعم عليه ، والإشادة بذكره ، ورفع قدره ما ليس في حذفه ، فإذا رأيت من قد أكرمه ملك وشرفه ورفع قدره فقلت : هذا الذي أكرمه السلطان ، وخلع عليه وأعطاه ما تمناه ، كان أبلغ في الثناء والتعظيم من قولك : هذا الذي أكرم ، وخلع ، وشرف وأعطي . (١)

- ويُلحظُ في كلام بن قيم الجوزية أنه جعلها ظاهرة قرآنية مطردة تأدباً في خطاب الله تعالى وقد قال بذلك جمهور المفسرين .

- والوجه الثالث في كلام ابن القيم يشير إلى ما في الآية من التفات من الخطاب "أنعمت" إلى الغيبة " غير المغضوب عليهم " وما فيه من حظ درجة

(١) مدارج السالكين لابن قيم الجوزية ١ / ١٧ .

الغائب إلى رتبة أقل ومنزلة أحقر فهو لا يستحق المواجهة والتشريف بالخطاب ، وقد أشار إلى ذلك الشيخ زاده بقوله : " ومن لطائف هذا التعبير أن العبد خاطب الله تعالى عند ذكر النعمة ، وصرح بإسناد النعمة تقرباً منه بذكر نعمته ، ولما صار إلى ذكر الغضب عدل إلى الغيبة ، ولم يصرح بإسناد الغضب إليه أدباً منه كأنه قال : أنت وليّ الإنعام ، وهو الفائض من جنابك ، وهؤلاء يستحقون أن يُغضب عليهم " . (١)

ويجعل الطاهر بن عاشور^(٢) في استحضار المنعم عليهم بطريق الموصول، وإسناد فعل الإنعام عليهم إلى ضمير الجلالة ، تنويه بشأنهم ، خلافاً لغيرهم من المغضوب عليهم والضالين .

— ويضيف أبو حيان إلى ما سبق فيقول : " وبناءه للمفعول ... وليكون المغضوب توطئة لختم السورة بالضالين لعطف موصول على موصول مثله لتوافق آخر الآي " . (٣)

فقد أضاف إلى الدلالات المعنوية ، دلالة لفظية تختص بتناسق الأسلوب وتناغم الجرس وتوافق الألفاظ ، وهي خاصية تضاف إلى الإعجاز ، بل قد جعل علماء البلاغة الإعجاز خاص بالانظم فحسب .

(١) حاشية الشيخ زاده ١ / ٥١ ، المكتبة الإسلامية — تركيا — بدون ، وراجع : حاشية الجمل ٦٢٤/٤ ، وحاشية الشهاب الخفاجي ١/٢٢٦ سابق ، وتفسير أبي السعود ١/٢٣ تح ، عبد القادر أحمد عطا — مطبعة السعادة — بيروت .

(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١/١٩٣ ، دار سحنون — تونس — بدون .

(٣) البحر المحيط لأبي حيان ١/٥٢ بعناية الشيخ زهير جعيد ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م دار الفكر .

ويرى ابن الأثير ^(١) في هذه الطريقة تناسباً للألفاظ مع المعاني ، وتناغماً خفياً حتى لا تكاد تُدرَك يقول بعد أن ذكر ما ذكره العلماء في سر إسناد الخير إليه تعالى ، وحذف الفاعل في مقابله : " فانظر إلى هذا الموضع ، وتناسب هذه المعاني الشريفة التي لا تكاد تطوُّها الأفهام مع قربها ، ويحوِّرُ الشهاب الخفاجي ^(٢) هذه العبارة فيقول : " فانظر إلى هذا الموضع ، وتناسب هذه المعاني الشريفة التي الأقدام لا تكاد تطوُّها ، والأفهام مع قربها صافحة عنها " ، وكما نرى من أقوال العلماء ، فهذه الطريقة من مظاهر الأسلوب القرآني ، وهي من عناصر التناسب والتناغم بين الأسلوب والمعنى الوارد فيه .

وقد عدَّ ابن الأثير في كنز البلاغة ، والتنوخي : في الأقصى القريب ، بناء الفعل للمفعول بعد خطاب فاعله نوعاً غريباً من الالتفات ، فإن كان الالتفات كما في استعمال الأدباء والمتقدمين بمعنى الافتنان فلا غبار عليه ، وإن كان بالمعنى المتعارف فلك أن تقول على رأي السكاكي الذي لا يشترط تعدد التعبير . بل مخالفة مقتضى الظاهر أن المخاطب إذا ترك خطابه وبنى ما أسند إليه للمفعول والمحدوف كالعائب ، فلا مانع من أن يسمى التفتاتاً ، فكما يجري في الانتقال من مقدر إلى محقق يجري في عكسه وهو معنى بدیع . ^(٣)

وسواء جعل هذا الأسلوب من قبيل الالتفات على ما قال به السكاكي . أم

(١) المثل السائر لابن الأثير ١/ ٤١٠ تج ، الشيخ كامل محمد عويضة ط أولى ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م ، دار الكتب العلمية - بيروت .

(٢) حاشية الشهاب الخفاجي ١ / ٢٢٦ .

(٣) حاشية الشهاب ١ / ٢٢٦ ، وتفسير الألويسي ١/ ٢٣١ ، والشروح ١ / ٤٧٨ دار الكتب العلمية بيروت ، بدون .

جعل من قبيل الافتنان والبداعة في الأسلوب فإنه كما قال عنه ابن الأثير طريقة لا نكاد تطوؤها الأفهام مع قربها .

— وذكر الفاعل في قوله " أنعمت " وطيه في قوله : " غير المغضوب عليهم" جاء مناسباً للجو العام للسورة فالسورة يشيع فيها جو الحمد والرحمة والهداية والإنعام ، وتؤكد السورة على صفة الرحمة فتبدأ بـ " بسم الله الرحمن الرحيم" ومع الخلاف حول البسملة فهي آية من كل سورة أم هي آية من القرآن تفتتح بها عند القراءة كل سورة ، فإن الأرجح أنها آية من سورة الفاتحة وبها تحتسب آياتها سبعا، وهناك قول بأن المقصود بقوله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾^(١) هو سورة الفاتحة بوصفها سبع آيات من المثاني ، لأنها يثنى بها وتكرر في الصلاة .^(٢)

— وتكرر هذه الصفة في صلب السورة " الرحمن الرحيم " فهي صفة تستغرق كل معاني الرحمة وحالاتها ، ومجالاتها تتكرر هنا في صلب السورة آية مستقلة لتؤكد السمة البارزة في تلك الربوبية الشاملة ولتثبیت قوائم الصلة الدائمة بين الرب ومربوبيه ، وبين الخالق ومخلوقاته ، إنها صلة الرحمة والرعاية التي تستجيش الحمد والثناء ، إنها الصلة التي تقوم على الطمأنينة ، وتبقى المودة فالحمد هو الاستجابة النظرية للرحمة الندبة .^(٣)

(١) الحجر ٨٧ .

(٢) الظلال ١ / ٢١ .

(٣) السابق ١ / ٢٤ .

وفي أساليب السورة من الأسرار ما يجسد هذا الفهم ، فقد أتى بصلة الذين فعلا ماضيا ليدل على ثبوت إنعام الله عليهم وتحقيقه لهم ، وأتى بصلة أل اسما "المغضوب" ليشمل سائر الأزمان ، وجاء به مبنيا للمفعول تحسينا للفظ لأن من طلبت منه الهداية ونُسب الإنعام إليه لا يناسبه نسبة الغضب إليه ، لأنه مقام تلتف وترفق لطلب الإحسان فلا يحسن مواجهته بصفة الانتقام . (١)

أما الموطن الثاني ففي سورة آل عمران في قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

فالآية أمر لرسول الله (ﷺ) أن يعظم ربه ، ويشكر نعمه حيث حوّلت النبوة من بني إسرائيل إلى النبي العربي القرشي المكي خاتم الأنبياء على الإطلاق فالمقام مقام ترجي المسلمين الخير من الله تعالى ، وقد علم أن خيرهم شر لضعفهم كما قيل : مصائب قوم عند قوم فوائد ، ولذلك خصّ الخير بالذكر ، وهو تعالى بيده كل شيء إذ الآية في معنى دعاء ورغبة ، فكان المعنى : بيدك الخير فأجزل حظي منه . (٢)

والناظر في أسلوب الآية يجد قوله : " تؤتي الملك من تشاء " خير ، وقد أسند إلى ضميره تعالى وفي تقديم الإيتاء على النزاع إشارة إلى أن الداعي ينبغي

(١) الدر المصون للسمين الحلبي ١ / ٨٦ تقديم الدكتور / أحمد محمد صبرة دار الكتب العلمية - بيروت ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م .

(٢) راجع تفسير ابن كثير ٣٥٧/١ ، وابن عطية ٤١٧/١ تح : عبد السلام عبد الشامي محمد ط أولى ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م ، دار الكتب العلمية - بيروت .

أن يبدأ بالترغيب . (١) ، وقوله : ﴿ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ﴾ شر في أصله ، لأن نزع الملك ممن لا يستحقه أو لا يستعمله في حقه ، ولا يراعي أمر الله فيه ، أو نزعه لحكمة يعلمها وحده - سبحانه - هو عين الخير ، ولذلك أسند إليه تعالى ، وقوله : " وتعز من تشاء " خير ، وقد أسند إلى ضميره تعالى ، وقوله : " وتذل من تشاء " مثل " وتنزع الملك ممن تشاء " وإسناد الشر إليه في هذه المواطن صفة كمال لأن نزع الملك ، وإذلال من يشاء من كمال القدرة وتامها ، ففي ذلك ثناء على الله تعالى ، وليس فيه شائبة نقص . وقوله : " بيدك الخير " أسلوب قصر أي : بيدك وحدك ، وهو يفيد قصر الخير عليه تعالى لا يشاركه فيه أحد ، وهو مناسب لمقام الدعاء والرجاء ، ولذا اقتصر على الخير ولم يقل: والشر، وقد ذكر العلماء لذلك أسراراً عدة منها :

— التأدب في حضرة الذات العلية ، وتعليماً لمراعاة الأدب ، وإلا فذكر

الإعزاز والإذلال يدل على أن الخير والشر بيده تعالى. (٢)

— كما جعلوا هذا الأسلوب من باب الاكتفاء بالمقابل لأهميته عندهم ، لأن

الخير مطلوب العباد من ربهم دون الشر ، فقوله : " بيدك الخير " أي : والشر

كقوله : ﴿ سَرَابِيلٌ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ﴾ (٣) أي : والبرد ، لأن الحرَّ على أهل الحجاز ،

أشد من البرد . (٤) لأن الكلام إنما وقع في الخير الذي يسوقه الله إلى المؤمنين ،

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ٢ / ٥٢ .

(٢) راجع : تفسير الآلوسي ٣ / ٣٤ ، وتفسير أبي السعود ١ / ٤٦١ .

(٣) سورة النحل ٨١ .

(٤) راجع : حاشية الجمل ٢ / ٥٩٠ ، وتفسير الرازي ط أولى ١٤١٢هـ / ١٩٩١م دار الفد العربي .

وهو الذي أنكرته الكفرة فقال : بيدك الخير تؤتيه أولياءك على رغم أعدائك (١)
فقد كان سبب نزول الآية ما أتى الله تعالى النبي (ﷺ) من البشارة بالفتوح ،
وترادف الخيرات وقد ذكر الواحدي : أن رسول الله (ﷺ) سأل ربه أن يجعل
ملك فارس والروم في أمته فأنزل الله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ ﴾ . (٢)

— وقد أضاف الرازي سراً آخر في أسلوب الآية فقال : " وفي الاقتصار
على ذكر الخير ، تعليم لنا كيف نمدح بأن نذكر أفضل الخصال . (٣)

— ويوجز البقاعي كثيراً من أسرار التعبير فيقول : " ولما تقرر أنه
مالك لما تقدم أنتج أن له التصرف المطلق فعبر عنه بقوله : " بيدك " أي : وحدك
"الخير" ولم يذكر الشر ، تعليماً لعباده الأدب في خطابه ، وترغيباً لهم في الإقبال
عليه ، والإعراض عما سواه ، لأن العادة جارية بأن الناس أسرع شيء إلى
مُعطي النوال ، وبإذل الأموال ، وتنبيهها على أن الشر أهل للإعراض عن كل شيء
من أمره ، حتى عن مجرد ذكره وإخطاره بالبال ، مع أن الاقتصار على الخير
يملك الخير كله مستلزم لمثل ذلك في الشر ، لأنهما ضدان ، كل منهما مساوٍ
لنقيض الآخر فإثبات أحدهما نفي للآخر ، ونفيه إثبات للآخر ، فلا يعطي الخير إلا
وقد نفي الشر، ولا ينزع الخير إلا وقد وضع الشر. (٤)

(١) الكشاف للزمخشري ١ / ٤٢٢ .

(٢) أسباب النزول للواحدي ص ٨١ تح : أيمن صالح شعبان ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م دار الحديث

— القاهرة وحاشية الشهاب الخفاجي ٣ / ٢٩ .

(٣) تفسير الرازي ٣ / ٨٧ سابق .

(٤) نظم الدرر ٢ / ٥٥ سابق .

وأما الموطن الثالث والرابع والخامس فيشملهما تحليل واحد وكلام واحد
ففي سورة الأنبياء في قوله تعالى : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ
أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ الآية ٨٣ .

— الآية جاءت دعاءً ورجاءً من سيدنا أيوب — عليه السلام — بعد صبر
طويل على المرض والابتلاء ، وموطن الدعاء خليق بصاحبه أن يهضم نفسه ،
ولا يرى غير ذنوبه المتكاثرة وعطاءات الله المتواترة ، ونعمه الوارفة ، وهكذا
كان سيدنا أيوب عليه السلام ، فلم يقل : مسستني بالضر . بنسبة الضر إليه
تعالى ، وإنما تأدب في خطابه تعالى . فجعل الضر كأنه هو الفاعل الحقيقي للمس
" مسني الضر " وفي سورة ص الموطن الرابع : ﴿ وَادْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى
رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ (١) أسند المس إلى الشيطان صراحة ،
وإن كانت الأشياء كلها من الله تعالى . تأدبا مع الله تعالى ، والإسناد إلى الشيطان
إسناد مجازي ، لكونه سببا فيما مسه الله تعالى به ، فإن الشيطان وسوس إلى
أيوب عليه السلام ، وطاوعه فيما وسوس فابتلاه الله تعالى بذلك . (٢)

ثم إن هذا القول : " أي مسني الضر " منه عليه السلام ، لم يكن جزعا
لأن الله تعالى وصفه بالصبر في قوله ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ﴾ (٣) بل هو دعاء

(١) الآية ٤١ .

(٢) راجع الكشف للزمخشري ٣ / ٣٧٦ وحاشية الشيخ زاده ٤ / ١٨٤ ، وحاشية الجمل
ومعها تفسير المحلى ٣ / ٥٧٦ سابق .

(٣) سورة ص ٤٤ .

ورجاء وإخبار عن حاله ، لا شكوى لبلائه ولذلك عقبه بقوله ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾^(١) ثم أثنى على خالقه بغاية الرحمة : " وأنت أرحم الراحمين " وفيه زيادة في الأدب ، إذ لم يذكر حاجته ولم يحدد بغيته ، بل اكتفى بالثناء عليه تعالى عن عرض المطلوب ، وهذه الجملة تحمل كثيرا من المعاني والدلالات ، فأرحم الراحمين ، هو الذي يكشف الضر ، ويزيل البأس ، وهو الذي يجلب النفع ويأتي بالخير .. فهي جملة تحمل كل المطالب دون أن تذكر مطلبا ، فضلا عن أنها ثناء وتقديس لله تعالى ، يقول الزمخشري : " أطف في السؤال حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة ، وذكر ربه بغاية الرحمة ، ولم يصرح بالمطلوب " ^(٢) وقوله : " أطف في السؤال " أي : عرض بحاجته ولم يصرح بها ، فهو أسلوب تعريضي ، ولذا أورد هذه القصة في معرض تفسيره لهذه الآية : يحكي أن عجوزاً تعرضت لسليمان بن عبد الملك فقالت : يا أمير المؤمنين ، مشت جردان بيتي على العصا فقال لها : أظفت في السؤال لا جرم لأردنّها تثب وثب الفهود ، وملاً بيتها حباً ، وقد قيل لبعض العلماء : الراضي بالله هل يسأل ربه؟ قال : يعرض ، أي : يسأل حاجته بالكناية ، قيل له مثل ماذا ؟ قال مثل قول أيوب: ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ . ^(٣)

— وكما سبق فقد نبّه العلماء على أن قول سيدنا أيوب عليه السلام :

(١) راجع تفسير ابن عطية ٩٥/٤ ، وحاشية الجمل ١٤١/٣ وتفسير البحر المحيط لأبي حيان ٤٦٠ / ٧ .

(٢) الكشاف للزمخشري ٥٨١ / ٢ .

(٣) راجع الكشاف ٥٨١ / ٢ ، وحاشية الشيخ زاده ٣٦٣ / ٣ .

"أني مسني الضر" ليس شكاية ولا جزعا ، وإنما هو إخبار عن حاله ، لأنهم يرون أن في الشكاية تبرّم من القضاء وعدم رضا به ، وفيه عدم الصبر ، مع أن الشكاية إلى الله تعالى وسؤاله أن يشفيه من مرضه ليس عيبا ولا جزعا ، بل فيه معنى التضرع والذل أيضا وهو أساس العبادة :

قالوا تشكو إليه ما ليس يخفى عليه قلت ربي يحب تذلل العبيد إليه

ولكن المقام الأعلى الصبر والرضا يقول الرازي : " قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَجِبْنَا لَهُ ﴾ يدل على أنه دعا ربه لكن هذا الدعاء ، قد يجوز أن يكون واقعا منه على سبيل التعريض كما يقال : إن رأيت ، أو أردت ، أو أحببت ، فافعل كذا ويجوز أن يكون على سبيل التصريح " ثم عقب قائلا : " وإن كان الأليق بالأدب وبدلالة الآية هو الأول " . (١)

وشبيهة بآية الأنبياء وآية ص آية إبراهيم الموطن الخامس في قوله تعالى : ﴿ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) فقد أسند الإضلال إلى الأصنام مجازا من باب نسبة الشيء إلى سببه إذ لما حصل الضلال بعبادتها أضيف إليها كما تقول فتنتم الدنيا وغرتهم وإنما فتنوا بها وغروا بسببها . (٣)

ولما كانت الأشياء كلها منه تعالى كان إسناد الإضلال إلى الأصنام من قبيل التأدب في خطاب الله تعالى .

(١) تفسير الرازي ١ / ١٨٦ .

(٢) الآية ٣٦ .

(٣) حاشية الجمل ٢ / ٥٢٧ .

أما الموطن السادس ففي سورة الشعراء في قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ * رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ * وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ * وَأَغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ * وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ الآيات ٧٧ - ٨٩ .

وهذه الآيات عرضت لها في بحث : " دعاء سيدنا إبراهيم - عليه السلام - في القرآن الكريم " (١) وهي التي أوحى إليّ بالكتابة في هذا البحث ، فسيدنا إبراهيم - عليه السلام - نسب إلى رب العالمين الخلق والهداية والإطعام والسقي والشفاء والإماتة والإحياء وغفران الذنوب ، ونسب المرض إلى نفسه : " وإذا مرضت " ولم يقل : والذي أمرضني ، وقد ذكر العلماء التأدب في خطاب الله تعالى سراً لهذا التعبير فقالوا : أسند المرض إلى نفسه ، وإن كان عن قدرة الله تعالى وقضائه وخلقه ، ولكن أضافه إلى نفسه تأدبا (٢) ، وهذا أدب عالٍ ، وخلق رفيع ، إذ فيه إسناد الخيرات والفضائل إلى الله تعالى ، الذي لا يكون الخير إلا منه ، وفي إسناد الشرور والقبائح إلى النفس هضم لها ، وعدم تركيتها بما يبطل العمل

(١) بحث منشور في مجلة كلية اللغة العربية بأسبوط للباحث العدد السادس والعشرون ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م .

(٢) راجع ابن كثير ٣ / ٣٣٩ ، وحاشية الجمل ٣ / ٢٨٢ ، والظلال ٥ / ٢٦٠٣ الطبعة الشرعية الخامسة والثلاثون ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م .

وجمهور المفسرين يرون هذا الرأي ، ويميلون إلى هذا التوجيه ، وما كان هذا البحث إلا من أجله ، لكن الإمام الزمخشري لم يرق له هذا التوجيه ، فقد رأى أن سيدنا إبراهيم — عليه السلام — أسند الإمامة إلى الله تعالى ، وهي أشد من المرض وارتأى توجيهاً آخر لهذا الأسلوب فقال : " وإنما قال مرضت دون أمرضني ، لأن كثيراً من أسباب المرض يحدث بتفريط من الإنسان في مطاعمه ومشاربه وغير ذلك ، ومن ثمَّ قالت الحكماء : لو قيل لأكثر الموتى : ما سبب انقطاع آجالكم ؟ لقالوا التخمّة " . (١)

— ويعقب ابن المنير على كلام الزمخشري السابق بتفضيل رأي الجمهور عليه فيقول : " ... والذي ذكره غير الزمخشري أن السرَّ في إضافة المرض إلى نفسه ، التأدب مع الله تعالى بتخصيصه بنسبة الشفاء الذي هو نعمة ظاهرة إليه تعالى " ثم يوجه رأي الزمخشري ويلتمس له علة فيقول : " ولعلَّ الزمخشري إنما عدل عن هذا ، لأن إبراهيم — عليه السلام — قد أضاف الإمامة إلى الله تعالى وهي أشد من المرض ، فلم يثبت عنده المعنى المذكور " ثم يرفضه ويرد عليه قائلاً : " ولكن المعنى الذي أبداه الزمخشري أيضاً في المرض ينكسر بالموت ، فإن المرض كما يكون بسبب تفريط الإنسان في نفسه كذلك الموت الناشئ عن سبب هذا المرض ، الذي يكون بتفريط الإنسان وقد أضافه إلى الله تعالى " .

— وقد دافع ابن المنير عن الرأي القائل بإسناد الخير إليه تعالى ، وعدم إسناد الشر ، تأدباً في خطابه تعالى ، وردَّ كلام الزمخشري ، وفرَّق بين نسبة الموت ونسبة المرض إليه تعالى في مقتضى الأدب ، بأن الموت قد عُلم واشتهر

(١) الكشاف للزمخشري ٣ / ١١٧ .

أنه قضاء محتوم من الله تعالى على سائر البشر ، وحكم عام لا يخص . ولا كذلك المرض ، فكم من معافى منه قد بَغَتَه الموت ، فالتأسي بعموم الموت لِعِلَّةٍ يُسْقَطُ أثر كونه بلاء . فيسوغ في الأدب نسبته إلى الله تعالى ، وأما المرض فلما كان مما يخصُّ به بعض البشر دون بعض كان بلاءً محققاً ، فاقتضى العلو في الأدب مع الله تعالى أن ينسبه الإنسان إلى نفسه باعتبار ذلك السبب الذي لا يخلو منه ، ويؤيد ذلك ، أن كل ما ذكره مع الموت أخبر عن وقوعه بتأً وجزماً ، لأنه أمر لا بد منه وأما المرض فلما كان قد يتفق وقد لا ، أورده مقرّوناً بشرط " إذا " فقال - وإذا مرضت - وكان ممكناً أن يقول : والذي يمرضني فيشفيني ، كما قال في غيره ، فما عدل عن المطابقة المجانسة المأثورة إلا لذلك . (١)

- ويحسن التنبيه إلى ثلاثة أمور في كلام الزمخشري وابن المنير :

الأول: أن ابن المنير ردّ كلام الزمخشري حين ذكر سر التعبير في اختيار " مرضت " دون "امرضني" بقوله : "لأن كثيراً من أسباب المرض يحدث بتفريط من الإنسان في مطاعمه ومشاربه وغير ذلك" وبرهن على رده .

والثاني : أن الزمخشري لم يلتفت في كشافه إلى هذا السر الذي رده جمهور العلماء إلا مرة واحدة بإشارة عابرة فهت من ثنايا كلامه في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ﴾ (٢) قال : " ... وإنما أمر رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يسنده إلي

(١) الانتصاف بهامش الكشاف ١١٧/٣ وراجع حاشية الشهاب ٧ / ١٩١ .

(٢) سبأ الآية : ٥٠ .

نفسه ، لأن الرسول إذا دخل تحته مع جلاله محله ، وسداد طريقته ، كان غيره أولى " (١) مع أن هذا السر أقرب إلى مذهب المعتزلة الذين يقولون إن الله تعالى خالق للخير وغير خالق للشر تنزيها له تعالى ، وأبعد عن رأي أهل السنة الذين يقولون إن الله تعالى خالق للخير والشر، دفعا لوجود مخلوق لم يخلقه الله تعالى.

والثالث : أن كلام ابن المنير قيم وطيب كله ، ماعدا قوله : " فما عدل عن المطابقة المجانسة المأثورة إلا لذلك " فالعدول قد يكون لذلك ، وقد يكون لغير ذلك . مما لم يدركه ابن المنير ولا غيره ، ولا سيما وهو يعلم أنه يتكلم عن أسرار الأساليب القرآنية ، التي لا يصل إلى كل أسرارها بشر ، وإن علا كعبه ، واستنار عقله ، فلو أنه قال عبارة شك كلعل أو تقليل كربما لكان أولى من استعماله أسلوب القصر – فما عدل عن المطابقة المجانسة المأثورة إلا لذلك – الذي يناهز عليه ببعده عن الصواب في هذه المقولة. والله أعلم

هذه هي مواطن الدعاء تقريبا التي أسند فيها الخير إلى الله تعالى، وحذف الفاعل في مقابلة تأدبا في خطابه تعالى ، وهذه الظاهرة تناسب موطن الدعاء، لأنه تذلل وخضوع ينبغي إظهار عظمة الله تعالى بذكر نعمه وبره وجوده ، وغير مناسب فيه البطش والقهر إلى الله تعالى .

* * *

الموطن السابع : في مدح طائفة من أهل الكتاب في سورة آل عمران في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾

(١) الكشاف للزمخشري ١١٧/٣ .

هذه الآية ضمن الآيات : ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ أَنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ قيل إنها تتحدث عن أمة محمد (ﷺ) على طريق الالتفات ، أي : لا يستوي أهل الكتاب وأمة محمد (ﷺ) فقد أخرج أحمد والنسائي وغيره عن ابن مسعود قال : " آخر رسول الله (ﷺ) صلاة العشاء ثم خرج إلى المسجد فإذا الناس ينتظرون الصلاة فقال : أما إنه ليس من أهل الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم وأنزلت هذه الآية " ليسوا سواءً من أهل الكتاب أمة قائمة " حتى بلغ " والله عليم بالمتقين " والمشهور عند كثير من المفسرين أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأسد بن عبيد وثعلبة بن شعبه وغيرهم ، أي : لا يستوي ، من تقدم ذكرهم^(١) بالذم من أهل الكتاب ، وهؤلاء الذين أسلموا ولهذا قال تعالى : " ليسوا سواء " أي : ليسوا كلهم على حد سواء ، بل منهم المؤمن ومنهم المجرم .^(٢)

وقوله : " فلم يكفروه " قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم بالياء

(١) في قوله تعالى (قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون . قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون ...) الآيات من ٩٨ - ١٠١ .

(٢) راجع ابن كثير ٣٩٨/١ ، وأسباب النزول للسيوطي ص ٩٢ تح : حامد أحمد الطاهر ط أولى ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م - دار الفجر للتراث - القاهرة .

على الغيبة لأن الكلام متصل بما قبله من ذكر مؤمني أهل الكتاب ، يتلون - يسجدون - يؤمنون - يأمرن - ينهون - يسارعون ، وهذا يوافق ما عليه جمهور المفسرين الذين قالوا بأن هذه الآيات نزلت في مدح طائفة من أهل الكتاب وهو الأشهر والأقوى لمساعدة السياق ، وأما الباقي فإنهم قرأوا بالتاء على سبيل المخاطبة والالتفات فهو ابتداء خطاب لجميع المؤمنين على معنى ، أن أفعال أهل الكتاب ذكرت ثم قال : وما تفعلوا من خير معاشر المؤمنين الذين من جملتكم هؤلاء فلن تكفروه ^(١) وحيء به على لفظ المبني للمفعول " فلن تكفروه " لأمرين : تنزيهه تعالى عن إسناد الكفر إليه كقوله: "أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا" ^(٢) وليأت على لفظ الكبرياء والعظمة " . ^(٣)

كما أن في بناء الفعل للمجهول أيجاز في اللفظ ، وتقصير في العبارة ، والبلاغة الإيجاز كما يقولون .

* * *

الموطن الثامن : في قصة سيدنا موسى والخضر - عليهما السلام - في سورة الكهف في قوله تعالى : ﴿ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا * أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدَتْ أَنْ

^(١) راجع : النشر في القراءات العشر لابن الجزري ١٨١/٢ قدم له الأستاذ على محمد الصباغ وخرج آياته الشيخ زكريا عميرات ط أولى ١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م ، دار الكتب العلمية - بيروت - والبحر المحيط لأبي حيان ٣١٣/٣ وحاشية الشيخ زاده ، ٦٦٣/١ .

^(٢) سورة الجن ١٠ .

^(٣) راجع : حاشية زاده ٦٦٣/١ ، وحاشية الجمل ٣٠٦/١ ، والبحر المحيط ٣١٣/٣ .

أَعْيَبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا * وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا * وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿ الْآيَات ٧٨ - ٨٢ .

- الآيات هي الحلقة الأخيرة من قصة سيدنا موسى والخضر عليهما السلام، وهي تبين أسرار خرق السفينة ، وقتل الغلام ، وإقامة الجدار من غير أجر ، ويأتي أسلوب الآيات - كعاداته - مليئا بالأسرار والفحوي ، فقد اختلفت الإضافة في هذه الإرادات ، وهي كلها في قصة واحدة والفاعل واحد وهو سيدنا الخضر - عليه السلام - .

ففي حادثة السفينة كان التعبير : " فأردت أن أعيبها " ناسبا العيب إلى نفسه وفي حادثة قتل الغلام كان التعبير " فخشينا ... فأردنا ... " أسند الخشية والإرادة إلى ضمير المتكلم ومعه غيره .

وفي حادثة بناء الجدار : " فأراد ربك ... " أضافه إلى الله تعالى .

وقد عزا بعض المفسرين هذا التغير لتنويح العبارة والتفنن في الأسلوب ^(١) وهذا معناه : أنه لا فرق بين المواطن الثلاثة في الأسلوب ، وهذا فهم سطحي بعيد عن بلاغة القرآن ، فتغاير أساليبه ، واختلاف مفرداته ، وتنوع صيغه ، إنما هي لحكمة مقصودة وأسرار مرادة ، علمها من علمها ، وجهلها من

(١) راجع حاشية الجمل وتفسير المحلى بالهامش ٣ / ٤١ .

جهلها ، وسنحاول إبراز شيء من هذه الأسرار في اختلاف هذه الإرادات . قدر ما يحفنا التوفيق ، وتتولانا العناية الإلهية . متكئين على أقوال أئمة القوم ، وسادة المحققين ، فتقول وبالله التوفيق إن المتأمل في المواطن الثلاثة يرى كثيرا من الأسرار التعبيرية المنطوية تحت هذا التغير .

ففي حادثة السفينة ، " فأردت أن أعيبها " ، وهو جواب عن اعتراض سيدنا موسى - عليه السلام - على خرق السفينة الذي يؤدي إلى هلاكها وهلاك من فيها ، ﴿ قَالَ أَخْرَقْتُهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ ، السياق شرٌّ كله ، إذ فيه خرق للسفينة وتخريب لها ، وإعاقة لها عن سيرها وعملها ، وإهدار لرزق تأتي به لمساكين ، بل فيه غرقها وتدميرها بمن فيها ، وقد جاء الأسلوب : ﴿ قَالَ أَخْرَقْتُهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ يحمل قدراً كبيراً من الغضب والإنكار على الفعل ، وامتلاً بأدوات التأكيد ، حتى يترجم عن شحنة الغضب التي تجيش بها نفسه ، وتعمل في خاطره ، فالاستفهام في قوله : " أخرقتها " وما يحمله من معنى الإنكار والرفض لهذا الفعل ، ولذلك ولي الفعل همزة الاستفهام " أخرقتها " ولفظنا الخرق والإغراق جاءتا لتقوى معنى الإنكار في الاستفهام ، فهما لفظتان تدلان على الفساد والهلاك ، كما وصف الفعل بأنه " إمرا " والإمر : أي منكر من قولهم : أمر الأمر ، أي : كبر وكثر . كقولهم : استفحل الأمر ^(١) وفي الكشاف : جئت شيئا إمرا " أي : أتيت شيئا عظيماً من

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص ٣٥ مادة : أمر ، راجعه : وائل أحمد

أمر الأمر إذا عظم قال : داهية دهياء ، إذا ، إمرا " . (١)

فكان المناسب للسياق ، والملائم للموقف ، أن يسند سيدنا الخضر عليه السلام العيب إلى نفسه تأدبا في خطاب المولى - جلّ وعلا - وتنزيهاً له تعالى أن يسند إليه الشر " فأردت أن أعيبها " ولم يقل : فعبتها : ليدل على أن فعله وقع عن قصد وتأمل ولم يقع عن غفلة وطيش ، وإنما أطلع الله على أسرار هذه الأفعال (٢) يقول ابن عطية : " ... وإنما أفرد أولاً في الإرادة لأنها لفظة عيب ، فتأدب بأن لم يسند الإرادة فيها إلا إلى نفسه . كما تأدب إبراهيم عليه السلام في قوله : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (٣) فأسند الفعل قبل وبعد إلى الله تعالى (٤) ، وأسند المرض إلى نفسه إذ هو معنى نقص ومصيبة (٥) ، ثم يضيف : " وهذا المنزع بطرد في فصاحة القرآن كثيراً ، ألا ترى إلى تقديم فعل البشر في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ (٦) وتقديم فعل الله في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾ (٧) ... (٨) وقول ابن عطية : " وهذا المنزع يطرد في

(١) الكشاف للزمخشري ٢ / ٤٩٣ .

(٢) راجع : التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور المجلد السابع ١٦ / ١٢ .

(٣) سورة الشعراء ٨٠ .

(٤) في قوله تعالى : (الذي خلقتي فهو يهدين * والذي هو يطعمني ويسقين * وإذا مرضت

فهو يشفين * والذي يميّتي ثم يحين) الشعراء ٧٨ - ٨١ .

(٥) المحرر الوجيز لابن عطية ٣ / ٥٣٧ .

(٦) سورة الصف ٥ .

(٧) سورة التوبة ١١٨ .

(٨) المحرر الوجيز لابن عطية ٣ / ٥٣٧ .

فصاحة القرآن الكريم كثيراً " أي : أن إسناد الخير إلى الله تعالى ، والشر إلى النفس ، ظاهرة مطردة في القرآن الكريم في خطاب الله تعالى ، وليست آية هنا وأخرى هناك ، وقد سبق قول ابن قيم الجوزية في ذلك ، ونعترض بوقفه حول الآيات التي ذكرها ابن عطية تدليلاً على أن إسناد الخير إلى الله تعالى وطبي الفاعل في الشر مطرد في فصاحة القرآن الكريم ، بل هي أوسع وأشمل من هذا فاستدلله بقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ لأن الزيغ : هو الميل عن الاستقامة ^(١) فهو اعوجاج وانحراف عن الطريق القويم ، والمنهج السليم ، ولذلك نسب الزيغ إليهم ، وقدمه ، وأسند التوبة إليه تعالى وإن كان الكل فعله ، تعليماً لعباده الأدب ، وإعلاماً بأن أفعالهم الاختيارية ينسب إليهم كسبها ، ويقوم بها الحجة عليهم ، لعدم علمهم بالعاقبة ^(٢) ، وقد دلت الآية على أنه تعالى خالق الأفعال كلها حسنها وقبيحها ، وأنه تعالى يضل من علم منه اختيار الضلال ، ويهدي من علم منه اختيار الاهتداء ^(٣) ، وفي قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾ التوبة هي : ترك الذنب على أجمل الوجوه وهو أبلغ وجوه الاعتذار ^(٤) فالفعل خير كله ، إذ فيه ندم واعتذار وترك للمعصية وتلبس بالطاعة ، ولذلك أسنده إلى الله تعالى وقدمه ، وأخر توبتهم لأنها ناشئة عن توفيق الله تعالى وهدايته ، وفاعل التوبة مقدر ، والمقدر في حكم الموجود أي : ثم تاب الله عليهم فالآية من بين الأدلة على أن إسناد الخير إلى الله تعالى وإسناد الشر إلى النفس

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص ٢٢٢ مادة زيغ .

(٢) نظم الدرر للبقاعي ٥٧٥/٩ .

(٣) حاشية الشيخ زاده على تفسير البيضاوي ٤ / ٤٨٩ .

(٤) المفردات للراغب الأصفهاني ص ٨٢ - سابق .

ظاهرة مطردة وقاعدة عامة كقوله تعالى : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾^(١) ، ﴿ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾^(٢) ، ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾^(٣) ، ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾^(٤) .

فالفعل " رضي " معناه : إعطا : ما يَرْضَى به^(٥) ، ولا يأتي إلا في مواطن الخير، يضاف إليه مواطن الآيات فهي في سياق كله نعيم وإنعام ، وتفضل وإحسان، فأية المائدة : " قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم " جاءت في سياق الحوار الذي دار بين الله تعالى وبين عيسى عليه السلام وسؤال الله لنبيه عيسى : ﴿ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ وهو سؤال توبيخ للكفرة ، وتبكيث لهم ، بإقراره عليه السلام بالعبودية على رعوس الأشهاد ، وأمره لهم بعبادة الله وحده^(٦) وكان الجواب تنزيه الله تعالى وتقديسه ، وأن هذا افتراء منهم ، وإدعاء عليه زورا وبهتانا ، ورد العلم إليه تعالى : ﴿ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ ثم تأكيده بأنه ما قال لهم إلا ما أمر به وهو عبادة الله وحده : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي

(١) سورة المائدة ١١٩ .

(٢) سورة التوبة ١٠٠ .

(٣) سورة المجادلة ٢٢ .

(٤) سورة البينة ٨ .

(٥) لسان العرب لابن منظور ٣/١٦٦٤ مادة رضي - دار المعارف - بدون .

(٦) حاشية الجمل ١ / ٥٤٤ .

بِهَ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ... ﴿١﴾ ، ثم يقرر المولى بأن هذا اليوم يجازي فيه الصادقون بصدقهم ، فيعصمهم من العذاب ويدخلهم : " جنات تجري من تحتها الأنهار خالدون فيها أبدا " ثم يعقب بقوله : " رضي الله عنهم ورضوا عنه " وهي تفيد بأن الفضل كله راجع إليه ، فدخل الجنات كان بتوفيقه وإحسانه ، ولذلك قدّم رضا الله ، وأسنده إليه تعالى .

— وفي سورة التوبة : " والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدون فيها أبدا ذلك الفوز العظيم " الحديث عن المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، وما لهم من الجزاء الوفير ، والنعيم المقيم يوم القيامة : ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ وقد قدّم على هذا النعيم جملة : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ التي هي سبب النعيم وأساس الفوز بالجنة ، وقد جعلت — في بعض الأقوال — خبرا لقوله " والسابقون " ^(١) فيكون سبقهم وفوزهم سببه رضوان الله عنهم ورضوانهم عنه ، فلما كان المقام كله خيرا وبشارة ونعيم ، لا جرم قدّم " رضي الله عنهم " وأسند الرضا إليه تعالى .

— وفي سورة المجادلة : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا

(١) راجع الكشاف للزمخشري ٢ / ٢١٠ وحاشية الجمل ٢ / ٣١٢ .

إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١﴾ .

والحديث في هذه الآية عن المؤمنين الذين يقاطعون من حارب الله ورسوله، وتمرد على أوامره وخالفها ، ولو كان المحارب والمعادي أباً أو ابناً أو أخاً أو من العشيرة وهذه المقاطعة للقرابة الوثيقة ، وروابط الدم القوية ، من أجل الله ، وهذه درجة من الإيمان عالية ، فكان لأصحابها المدح والثناء ، والبشارة بالثواب الجزيل وتواتر العطاءات وتزاحمها : " أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ... " فلما كان المقام كله خيراً وبشارة ، قدّم رضا الله تعالى لأنه الأصل ، وأسندته إليه تعالى .

وفي سورة البينة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ الحديث عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، والإخبار عنهم بأنهم خير البرية ، كما ذكر جزاءهم : " جنات عدن تجري من تحتها الأنهار ... " وذكر الخلود والدوام من تنمة الجزاء : " لأن اللذة لا تكمل إلا بالدوام ... " ثم أكد معنى الخلود تعظيماً لجزائهم بقوله : " أبداً " . (١)

— والمقام مقام إيمان وعمل صالح ، ودخول جنات والخلود فيها ، فأسند فعل الرضا إليه تعالى مع تقديمه .

فهذه ست آيات تضاف إلي مواطن البحث لتؤكد هذه الظاهرة وعمومها

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ٨ / ٥٠١ .

واطرادها .

ونعود إلى الحديث عن آية الكهف في الموطن الثاني .

— ففي حادثة قتل الغلام جاء التعبير " فخشينا .. فأردنا ... وقد قالوا فيه : لما كان فيه نوع إفساد في الظاهر وهو قتل الغلام ، ونوع إصلاح وهو حفظ أبويه من طغيانه وكفره وتبديله خير منه عبر بقوله : " فأردنا " أي : أنه أسند الخشية والإرادة إلى ضمير المتكلم ومعه غيره ، لأن إهلاك الغلام بمباشرة الخضر وفعله ، وتبديل غيره موقوف على الله تعالى ، وهو بمحض قدرته وإرادته ، فضمير " نا " مشترك بين الله تعالى والخضر عليه السلام . (١)

— وهذا التخريج لاقى اعتراضا قويا ، فاجتماع المخلوق مع الخالق في ضمير واحد لاسيما ضمير المتكلم فيه من ترك الأدب . ومجافاة التقديس والتنزيه في خطاب الله تعالى ، وقد جاءت الدراسة لإثبات عكس ذلك ، ويدل على ذلك أن ثابت بن قيس بن شماس ، كان يخطب في مجلسه — صلى الله عليه وسلم — إذا وردت وفود العرب ، فاتفق أن قدم وفد تميم ، فقام خطيبهم ، وذكر مفاخرهم ومآثرهم ، فلما أتمَّ خطبته ، قام ثابت وخطب خطبة قال فيها : " من يطع الله — عز وجل — ورسوله (ﷺ) فقد رشد ، ومن يعصمها فقد غوى " فقال له النبي (ﷺ) : بئس خطيب القوم أنت . (٢)

وهذا الاعتراض تناوله المحققون بالبحث والدراسة وخلاصة ما قرروه :

(١) راجع : حاشية الجمل ٣ / ٤١ ، وتفسير آلوسى ١٠ / ٥٧٩ .

(٢) المصدر السابق .

أنه لا كراهة في ذلك في كلام الله تعالى وكلام رسوله (ﷺ) فقد وقع نحو ذلك في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ (١) فإن الظاهر : أن ضمير "يصلون" راجع إلى الله تعالى وإلى الملائكة ، لأن ذلك منه تعالى محض تشريف للملائكة عليهم السلام ، وقوله (ﷺ) في حديث الإيمان : " أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ... " وأما في حق البشر : فعمل المختار أنه مكروه تنزيها في مقام دون مقام ، فإنكار الرسول (ﷺ) على الخطيب ، لأن بإمكانه أن يقول : ومن يعص الله ورسوله ، ولا يجمع كما فعل ، كما أن المراد بالخطب الإيضاح ، وأما في الحديث فالمراد الإيجاز في اللفظ ليحفظ وقال القاضي عياض : وأما تثنية الضمير هنا : " مما سواهما " فلإيماء على أن المعتبر هو المجموع المركب من المحبتين لا كل واحدة ، فإنها وحدها ضائعة لاغية ، وأمر بالإفراد في حديث الخطيب ، إشعاراً بأن كل واحد من العصيانين مستقل باستنزاه الغواية ، إذ العطف في تقدير التكرير والأصل استقلال كل من المعطوفين في الحكم ، وقد عدَّ ابن حجر العسقلاني هذا التوجيه من محاسن الأجوبة ، وأضاف إليه : أن ذلك من الخصائص النبوية ، فيمتنع من غيره (ﷺ) ولا يمتنع منه ، لأن غيره إذا جمع أوهم إطلاقه التسوية بخلافه هو (ﷺ) فإن منصبه لا يتطرق إليه إيهام ذلك ، ومنها : أنه (ﷺ) أمر بالإفراد ، لأنه أشد تعظيماً والمقام يقتضي ذلك. (٢)

(١) سورة الأحزاب ٥٦ .

(٢) راجع في ذلك : الألويسي ٥٨٠/١٠ ، سابق وفتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ٧٧/١ ، ٧٨ دار المنار ط أولى ١٤١٩ هـ / ١٩٩٩ م ، وعمدة القاري شرح =

وقد رفض الألوسي أن يكون الضمير في قوله " فأردنا " مشتركا بين الله تعالى والخضر عليه السلام ، ويجعله ضمير العظمة الراجع إليه تعالى يقول : " ... وأنا لا أقول باشتراك الضمير بين الله تعالى والخضر عليه السلام ، لا لأن فيه ترك الأدب ، بل لأن الظاهر أنه كضمير " فخشينا " والظاهر في ذلك عدم الاشتراك لأنه محوج لارتكاب المجاز ، ويرتضي توجيه ابن المنير فيقول : " ... وفي الانتصاف لعل اسناد الأول إلي نفسه خاصة من باب الأدب مع الله تعالى ، لأن المراد ثم عيب فتأدب عليه السلام بأن نسب الإعابة إلي نفسه ... وأما إسناد الثاني إلى " نا " فالظاهر أنه من باب قول خواص الملك أمرنا بكذا، ودبرنا كذا ، وإنما يعنون : أمر الملك العظيم ودبر ، ويدل على ذلك قوله في الثالث : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ﴾ وهو كما ترى . (١)

— وقول الألوسي : " وهو كما ترى " يشير إلى حسنه ووجاهته ولذلك ارتضاه وجها لهذا التعبير ، وقد صرح بذلك الشهاب الخفاجي حيث يقول : " ... والأحسن ما في الانتصاف : من أنه من باب قول خواص الملك : أمرنا بكذا ، يعنون : أمر الملك العظيم " . (٢)

وقالوا : أسند الخشية والإرادة إلى ضمير المعظم نفسه ، أو المتكلم ومعه

=صحیح البخاري للإمام بدر الدين العيني ٢٤٣/١ ط أولى ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م دارا لكتب العلمية — بيروت والشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض ص ١٨ تحقيق : عامر الجزار ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م دار الحديث القاهرة .

(١) راجع الألوسي ١٠ / ٥٨٠ ، والانتصاف بهامش الكشاف لأحمد بن المنير ٢ / ٤٩٦ .

(٢) حاشية الشهاب الخفاجي ٦ / ٢٢٤ سابق .

غيره لأن في إسناد الإرادة إلى هذا الضمير " نا " تعظيماً لأمر النفس المقتولة وفي تعظيمها تعظيم لأمر القتل ، وكذا في إسناد الخشية إلى ضمير " نا " تعظيم لأمرها ، وفي تعظيمه تعظيم أمر المخشى وربما يقال : إن في ذلك الإسناد ، إشارة إلى أن ما يُخشى وما يراد قد بلغ من العظم إلى أن يشارك موسى عليه السلام في الخشية منه وفي إرادته الخضر . لا أن يستقل بإنكار ما هو من مبادئ ذلك المراد . (١)

— وكما أن الاعتراض الأول كان يحمل قدراً كبيراً من الغضب ، والإنكار على الفعل فكذا الاعتراض الثاني : " قال أقتلت نفساً زكيةً بغير نفسٍ لقد جئت شيئاً نكراً " لا يقل عنه قوة وتأكيده ، لأن الحدثين يتشابهان ، فالأول يؤدي إلى خراب السفينة وهلاك من فيها ، والثاني : قتل نفس بريئة زكية من غير ذنب أئته ، أو جناية ارتكبتها فكان الاستفهام " أقتلت " الذي يحمل معنى الإنكار لهذا الفعل والرفض له ، ثم توجيه الخطاب إليه بتاء الخطاب وتكريرها — أقتلت — جئت — وليس هذا التكرير للتلذذ بذكره ، بل للتأكيد بفعله ، والتهويل من سوء عاقبته ، والتأكيد باللام وقد " لقد " ، ولما كان الحدثان متشابهين في قوة الإنكار عليهما ، ورفض العقول السوية لهما ، اختلف العلماء في أيهما أبلغ في التعبير " إمرأ " أو " تكراً " يقول الزمخشري : " وقيل النكر أقل من الإمر ، لأن قتل نفس واحدة أهون من إغراق أهل السفينة ، وقيل معناه : جئت شيئاً أنكر من الأول ، لأن ذلك كان خرقاً يمكن تداركه بالسد ، وهذا لا سبيل إلى تداركه " (٢) لكن الذي

(١) راجع الألويسي ١٠ / ٥٨٢ .

(٢) الكشاف للزمخشري ٢ / ٤٩٣ ومفاتيح الغيب للفخر الرازي ١٠ / ٣٥٨ .

عليه المحققون: أن النكر أعظم من الإمر في القبح ، لأن ما يشتد ويعظم من الأمور لا يلزم أن يكون منكرا ، والشيء إنما يكون نكرا إذا أنكرته العقول ، ونفرت منه الطباع^(١) كما أن خرق السفينة فيه توقع الهلاك ، أما قتل الغلام فقد تحقق - فالجرم فيه أكبر ، والإنكار عليه أعظم .

- وفي حادثة بناء الجدار : " فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ... " المقام كله خير وتفضل ، ونعم على اليتيمين متواترة إذ فيه بلوغ الأشد ، واستخراج الكنز ، وحفظ المال ، وفي ذلك رعاية لمصالح اليتيمين. لأجل صلاح أبيهما ، ولذلك أضيف إليه تعالى : " فأراد ربك " ولأن المتكفل بمصالح الأبناء لرعاية حق الآباء ليس إلا الله تعالى .^(٢)

- وقوله : " فأراد ربك ... " إجابة عن اعتراض الخضر عليه السلام على بناء جدار " لو شئت لاتخذت عليه أجرا " من غير أجر في قرية أبوا أن يضيفوهما وهو لاشك عمل من مكارم الأخلاق ، وغاية ما يتخيل الاعتراض عليه والنكير على فعله ، هو أن هذا الفعل لمن لا يستحق ، ولذلك كان أقل من الأسلوبين السابقين في الإنكار ، فقللت تأكيدات ، ولم يوجد فيه غير هذا الاستفهام الملحوظ من السياق ، الذي يحمل قدرا من الإنكار ، ولكنه إنكار لا يساوي ما في الأولين يقول ابن عطية : " قال لو شئت لتخذت عليه أجرا " وإن لم يكن سؤالا ففي ضمنه الإنكار لفعله والقول بتصويب أخذ الأجر ، وفي ذلك تخطئة ترك أخذ

(١) راجع حاشية الشيخ زاده ٢٧٠/٣ ، والبرهان في توجيه متشابه القرآن للكرماني ص ١٢٨

تح: عبد القادر عطا ط أولى ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م دار الكتب العلمية - بيروت .

(٢) راجع تفسير الرازي : ٣٧٠/١٠ وحاشية الجمل ٤١/٣ .

الأجر . (١)

ويقول الألويسي : " ولما كان الاعتراض الثالث هينا جداً ، حيث كان بلفظ لا تصلب فيه ، ولا إزعاج في ظاهره وخافيه ، ومع هذا : لم يكن على نفس الفعل ، بل على عدم أخذ الأجرة عليه ، ليستعان بها على إقامة جدار البدن ، وإزالة ما أصابه من الوهن ، فناسب أن يلين في جوابه المقام ، ولا ينسب لنفسه استقلالاً - أي بالتعبير بضمير المتكلم " فأردت " - أو مشاركة - أي بالتعبير بضمير " نا " فأردنا - شيئاً ما ، من الأفعال ، فلذا أسند الإرادة إلى الرب سبحانه وتعالى " . (٢)

وقد ذكر العلماء في المخالفة بين هذه الأساليب أسراراً أخرى منها : أنه أسند الإرادة في الأولين إلى نفسه لكنه تفنن في التعبير ، فعبر عنها بضمير المتكلم الواحد لأن مرتبة الانضمام مؤخرة عن مرتبة الإفراد - مع أن فيه تنبيهاً على أنه من العظماء في علوم الحكمة ، فلم يُقدِّم على هذا القتل إلا لحكمة عالية بخلاف التعيب . (٣)

- وكذلك يجعل الطاهر ابن عاشور الضمير في " فخشينا " " فأردنا " عائداً إلى المتكلم الواحد بإظهار أنه مشارك لغيره في الفعل لكن المقصود به في هذا الموطن التواضع لا التعاضم كما هو المعتاد في استعمال هذا الضمير يقول : " وهذا الاستعمال يكون من التواضع لا من التعاضم ، لأن المقام مقام إعلام بأن الله

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ٥٣٤/٣ ، والبحر المحيط لأبي حيان ٧ / ٢١١ .

(٢) الألويسي ١٠ / ٥٨٣ .

(٣) المصدر السابق .

أطلعته على ذلك وأمره ، فناسبه التواضع ، ولم يقل مثله عندما قال : " فأردت أن أعيبها" لأن سبب الإعابة ، إدراكه لمن له علم بحال تلك الأصقاع (١) " ... (٢) وَيُنظَرُ هَذِهِ الْآيَةَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ ﴾ (٣) يقول : " وضائر - نأخذ - وجدنا - متاعنا - وإنا - لظالمون - مراد بها المتكلم وحده ، دون مشارك ، فيجوز أن يكون من استعمال ضمير الجمع في التعظيم ، حكاية لعبارته في اللغة التي تكلم بها ، فإنه كان عظيم المدنية ، ويجوز أن يكون استعمال ضمير المتكلم المشارك تواضعا منه ، تشبيها لنفسه بمن له مشارك في الفعل وهو استعمال موجود في الكلام ومنه قوله تعالى : حكاية عن الخضر عليه السلام ﴿ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ . (٤)

- ويذكر ابن عاشور سراً آخر لاختلاف الأسلوب فيقول : " وقد أسند الإرادة في قصة الجدار إلى الله تعالى دون القصتين السابقتين ، لأن العمل فيهما كان من شأنه أن يسعى إليه كل من يقف على سره ، لأن فيهما دفع فساد عن الناس بخلاف قصة الجدار فتلك كرامة من الله لأبي الغلامين . (٥)

فقد أشار إلى أن التعبير بـ " أردت - فخشينا - فأردنا " لأن هذا العمل

(١) الأصقاع : الأماكن ، اللسان مادة صقع ٤ / ٢٤٧٢ .

(٢) التحرير والتنوير للظاهر بن عاشور المجلد السابع ١٦ / ١٤ .

(٣) سورة يوسف ٧٩ .

(٤) التحرير والتنوير للظاهر بن عاشور المجلد السادس جـ ١٣ / ٣٨ .

(٥) السابق . المجلد السابع جزء ١٦ / ١٤ .

يقوم به كل من وقف على سره ، وليس - فقط - من اختصاص الخضر - عليه السلام - وتفرد به ، لأن حب الخير ودفع الضر شيء أصيل في النفس الإنسانية أما في قصة الجدار فتلك كرامة من الله تعالى لأبي الغلامين : " إذ علم أن إياهما كان يهيمه أمر عيشهما بعده ، وكان قد أودع تحت الجدار مالا ، ولعله سأل أن يُلهم ولديه عند بلوغ أشدهما ، أن يبحثا عن مدفن الكنز تحت الجدار بقصدٍ أو بمصادفة ، فلو سقط الجدار قبل بلوغهما لتناولت الأيدي مكانه بالحفر ونحوه فعثر عليه عاثر ، فذلك أيضا لطف خارق للعادة " . (١)

- وقد أضاف الشيخ زاده سراً آخر في التعبير بقوله : " فخشينا " فإما أن يكون من كلام الخضر عليه السلام ، وعندئذ تنسحب عليه الأسرار السابقة ، وإما أن يكون حكاية قول الله تعالى ، أدْرَجَهُ فِي أَثْنَاءِ كَلَامِهِ ، ولم يقل فخشيت ، إيماءً إلى اضمحلال إرادته في جنب إرادة الله تعالى ، وإعلاماً بأن علمه مقتبس من المشكاة القدسية ولا شوب لرأيه ، وتحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَنَا مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ (٢) كما قال جبريل عليه السلام : ﴿ لَأَهَبَ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ (٣) ، والواهب هو الله تعالى ، وهو مبلغ لكلام الله تعالى إياه . (٤)

- فقد ذكر الشيخ زاده لاستعمال ضمير " نا " ثلاثة أسرار هي :

١ - عدم اعتداده بنفسه وتلاشيها عنده في مقابل إرادة الله تعالى .

(١) المصدر السابق .

(٢) سورة الكهف ٦٥ .

(٣) سورة مريم ١٩ .

(٤) حاشية الشيخ زاده ٣ / ٢٧٢ .

٢ - الإعلام بأن علمه مقتبس من المشكاة القدسية ، ولا أثر لرأيه في ذلك.

٣ - في استعمال ضمير " نا " مقصود به الرب تعالى ، دلالة على أن تصرفاته تابعة ونابعة من الأمر الإلهي .

- وقد ذكر الألووسي وجها في أسرار هذه الأساليب وبدأه بقوله : " والذي خطر ببال العبد الفقير " وهذا يدل على أنه لم يسبق إليه ، ولم يأخذه عن أحد ، وكان لجمال هذه الخاطرة الألووسية ، أنها نظرت إلى السياق ، إذ قد روعي في الجواب حال الاعتراض السابق يقول : " فلما كان الاعتراض الأول بناءً على أن لام "لتغرق" للتعليل متضمنا إسناد إرادة الإغراق إلى الخضر عليه السلام ، وكان الإنكار فيه دون الإنكار فيما يليه ، بناءً على ما اختاره المحققون من أن " نكرا" أبلغ من "إمرا" ناسب أن يشرح بإسناد إرادة التعيب إلى نفسه المشير إلى نفي إرادة الإغراق عنها ، التي يشير كلام موسى عليه السلام إليها ، وأن لا يأتي بما يدل على التعظيم ، أو ضم أحد معه في الإرادة ، لعدم تعظيم أمر الإنكار المحوج لأن يقابل بما يدل على تعظيم إرادة خلاف ما حسبه عليه السلام وأنكره " (١) .

* * *

الموطن التاسع : في خطاب نساء النبي (ﷺ) في سورة الأحزاب في قوله تعالى : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ

(١) الألووسي ١٠ / ٥٨٢ .

ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا * وَمَنْ يَفْتَنْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتَهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ آيتا ٣٠ ، ٣١ .

هاتان الآيتان جاءتا في سياق تخيير الرسول (ﷺ) لنسائه ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ إِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرَبِيَّتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعَنَّ وَأَسْرَحَنَّ سَرَّاحًا جَمِيلًا * وَإِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١) ثم خاطب نساء النبي (ﷺ) : " يا نساء النبي من يأت منكن " وفي إضافتهن إليه (ﷺ) " يا نساء النبي " تشريف لهن ورفع لمنزلتهن ، فهن أزواج النبي ، وهن أمهات المؤمنين ، وهذه الصفة وتلك كلتاهما يترتب عليها واجبات ثقيلة ، وتعصمهن كذلك من مقارفة الفاحشة فإذا فرض وقارفت واحدة منهن فاحشة كانت مستحقة لضعفين من العذاب وذلك يبين تبعة المكان الكريم الذي هن فيه ، وكذلك التي تفعل الطاعة " نُؤْتَهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ " فكما ضوعف من عذابهن ، ضوعف من أجرهن وثوابهن . (٢)

— ومع أن الآية نصت على أن عقاب الفاحشة لهن — رضوان الله عنهن — ضعفين ، وثواب الطاعة مرتين ، إلا أن الأسلوب اختلف في الموضوعين اختلافاً يفهم منه أمرين ، الأول : أن رحمة الله سبقت غضبه ، والثاني : أنه أسند الخير إلى الله تعالى ، وفي الشر حذف الفاعل وبنى الفعل للمجهول ، فعند ذكر العذاب لم يصرح بالمعذب ، وإنما طوى الفاعل : " يضاعف لها العذاب ضعفين " وبنى الفعل للمجهول ، وعند ذكر إيتاء الأجر صرح بالمؤتى وهو الله — عز وجل — :

(١) سورة الأحزاب ، ٢٨ ، ٢٩ .

(٢) راجع الظلال ٥ / ٢٨٥٧ .

"توتها أجرها مرتين" وفي ذلك إشارة إلى كمال الرحمة والكرم ، كما أن الكريم الحي عند النفع يظهر نفسه وفعله ، وعند الضر لا يذكر نفسه ^(١) يقول الألويسي : "ومن تأمل في الجملتين ظهر له تغليب جانب الرحمة على جانب الغضب ، وكفى بالتصريح بفاعل إيتاء الأجر ، وجعله ضمير العظمة ، والتعبير عما يؤتون من النعيم بالأجر مع إضافته إلى ضميرهن ، مع خلو جملة تضعيف العذاب عن مثل ذلك" . ^(٢)

وهذا التوجيه يتفق مع قراءة الجمهور : "يُضَاعَفُ" مبنيًا للمفعول ورفع العذاب على أنه نائب فاعل ^(٣) وأيضا على قراءة ابن كثير وابن عامر بالنون وتشديد العين وكسرها من غير ألف "نُضَعَّفُ" ونصب العذاب ^(٤) ، فإن القاعدة لا تنكسر والتوجيه لا ينثلم ، وذلك لأن المتكلم يكون هو الله تعالى وقاعدة إسناد الخير إلى الله تعالى والشر إلى النفس تتحقق عندما يكون المتكلم غير الله تعالى.

* * *

الموطن العاشر : في تساؤل الجن في قوله تعالى : ﴿ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ الجن ١٠ .

^(١) راجع الرازي ١٢ / ٥٩١ ، وحاشية زاده ٤ / ٦٢ .

^(٢) الألويسي ١٤ / ٥٠٦ .

^(٣) النشر في القراءات العشر لابن الجزري ٢ / ٢٦١ .

^(٤) النشر في القراءات العشر ٢ / ٢٦١ والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور مجلد ٩ جزء

وهذه الآية ضمن آيات تتحدث عما حدث حين بعث الله رسوله محمداً (ﷺ) وأنزل عليه القرآن ، وكان من حفظه له أن السماء ملئت حرساً شديداً ، وحفظت من سائر أركانها ، وطردت الشياطين عن مقاعدها التي كانت تقعد فيها قبل ذلك ، لئلا يسترقوا شيئاً من القرآن ، فيلقوه على السنة الكهنة ، فياتبس الأمر ويختلط ، ولا يُدرى من الصادق ولهذا قالت الجن : " وأنا لسمنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً ، وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً " ثم أضافوا هذا التساؤل : " وأنا لا ندري أشراً أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً " أي : هذا الأمر الذي حدث في السماء لا ندري هل هو خير أو شر ، فقد أسندوا الخير إليه تعالى وأظهروا الفاعل في قولهم " أم أراد بهم ربهم رشداً " وفي الشر طوي الفاعل وبنى الفعل للمجهول هرباً من إسناد الشر إليه تعالى وهذا من أدبهم في العبارة وقد ورد في الصحيح : " والشر ليس إليك " . (١)

— وقد علق الألويسي بقوله : " ولا يخفى ما في قولهم : " أشراً أريد بمن في الأرض إلخ من الأدب حيث لم يصرحوا بنسبة الشر إلى الله تعالى ، كما صرحوا به في الخير ، وإن كان فاعل الكل هو الله تعالى ، ولقد جمعوا بين الأدب وحسن الاعتقاد " . (٢)

— والإمام البقاعي ذكر سرين آخرين إضافة إلى التأدب في خطاب الله تعالى، الأول : أن هذا النمط من الأسلوب يفيد أن رحمة الله سبقت غضبه

(١) راجع ابن كثير ٤ / ٤٣٠ .

(٢) الألويسي ١٨ / ٩٦ وانظر تفسير أبي السعود ٥ / ٤٠٥ .

والثاني: إشارة إلى أنه قد يكون أراد بهذا المنع الخير يقول : " ولما كان المحذور نفس الإرادة الماضية ، لا كونها من معروف ، مع أن الفاعل معروف ، وهو الفاعل المختار الذي له الإرادة الماضية النافذة بنوا للمفعول قولهم : " أريد " معلمين للأدب في أن الشر يتحاشى من إسناده إليه - سبحانه - حيث لا إشكال في معرفة أنه لا يكون شيء إلا به ... " أم أراد بهم ربهم " أي : المحسن إليهم ، المدبر لهم، بنوه للفاعل في جانب الخير إعلاما مع تعليم الأدب بأن رحمته سبقت غضبه، وإشارة إلى أنه قد يكون أراد بهذا المنع الخير " (١) .

— والإمام البقاعي في استخراج واستنباط بأن رحمة الله سبقت غضبه من الأسلوب القرآني ، ليس بدعا من بين المفسرين ، فقد التفتوا إلى هذا السر اللطيف واستنبطوه من فحوى الأساليب ، فالقرآن كله مبني على أن رحمة الله سبقت غضبه ، وقد تتبعوا هذه الظاهرة في القرآن ، وقد أكثر الرازي في تفسيره من الالتفات إليها ، وكان يستنبطها من الأساليب ، ويدلل عليها بقوة بيان وسطوع برهان ، يقول في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٢) " ... ثم في الآية دقيقة أخرى : وهي أنه تعالى لما بين إمساس الضر بين أنه لا كاشف له إلا هو ، وذلك يدل على أنه تعالى يزيل المضار ، لأن الإثبات من النفي إثبات ، ولما ذكر الخير لم يقل ، بأنه يدفعه ، بل قال إنه لا راد لفضله ، وذلك يدل على أن الخير مطلوب بالذات والشر مطلوب بالعرض ، كما قال النبي

(١) نظرم الدرر للبقاعي ٨ / ١٨٩ .

(٢) سورة يونس ١٠٧ .

(ﷺ) رواية عن رب العزة أنه قال : " سبقت رحمتي غضبي " الوجه الثاني : أنه تعالى قال في صفة الخير : " يصيب به من يشاء من عباده " وذلك يدل على أن جانب الخير والرحمة أقوى وأغلب ، الوجه الثالث : أنه قال تعالى : " وهو الغفور الرحيم " وهذا أيضاً يدل على قوة جانب الرحمة " . (١)

— وكما هو بيّن أن استنباطات المفسرين هذه ، تدل على شدة التأمل في الأسلوب القرآني وإدراك الكثير من الفحوى والأسرار التي لا يُهتدى إليها إلا بعد التوفيق وطول النظر .

* * *

الموطن الحادي عشر : في رد الرسول (ﷺ) على المشركين في اتهامه بالكذب في دعوى الرسالة في سورة سبأ في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ الآية ٥٠ .

— وهذه الآية جاءت في سياق طويل يرد فيه المولى سبحانه الشبه التي يلقىها المشركون ، ويتهمون الرسول (ﷺ) بكثير من الاتهامات نجتزئ منه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إفكٌ مُفْتَرَى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ * وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ الآيات ٤٣ — ٤٥ .

(١) تفسير الرازي ٨ / ٤٦١ .

فقد وصفوه (ﷺ) - بأنه يريد أن يصددهم عما كان يعبد آباؤهم ، ثم وصفوا القرآن بأنه " إفك مفترى " وأكدوا هذا الوصف بأنه " سحر مبين " وقد ردَّ الله عليهم شبهتهم بأن هذه الأقوال لا سند لها ولا دليل : " وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذر " ثم هددهم بقوله : " وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلي فكيف كان نكير " ، وهذا الاستفهام " فكيف كان نكير " الذي يحمل معنى التعظيم للأمر ، وفيه تهديد لقريش وهو معطوف على محذوف تقديره : فحين كذبوا رسلي جاءهم إنكاري بالتدمير ، فكيف كان نكيري لهم ، أي : عليهم ، فيحذر هؤلاء من مثله . (١)

ثم تأتي خمس آيات متوالية تبدأ بقل ويكرر فيها الأمر لرسول الله (ﷺ) للاهتمام بما احتوت عليه : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ * قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * قُلْ إِنْ رَبِّي يَفْزِفُ بِالْحَقِّ عَلَافَةَ الْغَيْبِ * قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلَ وَمَا يُعِيدُ * قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ الآيات ٤٦ - ٥٠ .

فقد أمر الله تعالى نبيه (ﷺ) بخمسة أمور صدرها بـ " قل " وكررها لأهميتها :

الأول : أن يتأملوا ويتدبروا في صفاته (ﷺ) فسيخلصون إلى عدم

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٨ / ٥٦٠ ، وحاشية الجمل ٣ / ٤٧٩ .

اتهامه بالجنون بل هو نذير لخلاصكم من العذاب الشديد المحقق بكم .

الثاني : نفى عن نفسه (ﷺ) أن يكون قصده عرضاً دنيوياً " قل إن سألتكم من أجر فهو لكم " وهو كناية عن أنني لا أسألكم على دعائي لكم إلى الله أجراً أصلاً بوجه من الوجوه .

الثالث : عرفهم قدرة الله تعالى بما يناسب الموقف فأخبرهم أن الله وحده الذي ينصر من أراد نصره ويفضح من أراد فضيحته " قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب " ، والتعبير عن اسم الله بلفظ الرب ، وإضافته إلى ضمير المتكلم للإشارة إلى أن الحق في جانبه ، وأنه مؤيد من ربه ، فإن الرب ينصر مربوبيه ويؤيدهم . (١)

الرابع : أخبر عن ظهور الحق ووضوحه الذي عليه (ﷺ) ، وهزيمة الباطل واندراسه الذي عليه المشركون " قل جاء الحق وما يبدى الباطل وما يعيد " وقوله " وما يبدى الباطل وما يعيد " كناية عن هلاك الباطل بما يهز النفس بتمثيله بمن انقطعت حركته ، وذهبت قوته ، حتى لا يرجى بوجه ، وهو ما عبر عنه بالزهوق في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (٢) (٣)

الخامس : أخبرهم أن الخير كله من عند الله ، وفيما أنزل الله - عز وجل

(١) راجع : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ١٩٢/٦ ، والتحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور المجلد ٩ جزء ٢٢ / ٢٣٦ وما بعدها .

(٢) سورة الإسراء ٨١ .

(٣) راجع : نظم الدرر ١٩٢ / ٦ ، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور مجلد ٩ جزء ٢٢ / ٢٣٩ .

— من الوحي والحق المبين فيه من الهدى والبيان والرشاد ، ومن ضلَّ فإنما يضل من تلقاء نفسه ، كما قال عبد الله بن مسعود — رضي الله عنه — لما سئل عن تلك المسألة في المفوضة : أقول فيها برأي فإن يكن صواباً فمن الله وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان منه .^(١)

— وفي هذا الموطن أسند الضلال إلى نفسه ، " قل إن ضللت " وهذا يفيد أن الضلال المفروض إن حصل فبسببه من قبل نفسه ، من إسناد فعل "ضل" إلى ضمير المتكلم ثم قصر الضلال على نفسه ، " فإنما أضل على نفسي " وهو أعرق في التعلق به كما يقول ابن عاشور^(٢) والمعنى : فإن وبال ضلالي عليها لأنها سببه إذ هي الأمانة بالسوء^(٣) ، والتعبير بـ " على " في قوله "أضل على نفسي " لأن الضلال إذا استعلى على شيء ظهر أمره فيتبين عوارده ، فيلزم عاره ، ويصير صاحبه بحيث لا يدري شيئاً ينفع ولا يعيد وقد استشف البقاعي من التعبير بالفعل الماضي الذي لا مفاعلة فيه " فإنما أضل على نفسي " بأن النفس منقادة بل مترامية نحو الباطل ، وفي الهدى عبر بالافتعال " اهتديت " إشارة إلى أنه لا بد فيه من هادٍ وعلاج .

— وفي الاهتداء أسنده إلى ربه : " وإن اهتديت فبما يوحي إليّ ربي " وقد قابل الشرطية " إن ضللت " بقوله : " وإن اهتديت " ... إلخ لأن الاهتداء بهدايته وتوفيقه ، وهي مقابلة معنوية يقول الزمخشري ، فإن قلت : أين التقابل

(١) تفسير ابن كثير ٣ / ٥٤٥ .

(٢) التحرير والتنوير للظاهر بن عاشور مجلد ٩ جزء ٢٢ / ٢٤٠ .

(٣) حاشية الجمل ٣ / ٣٨٠ .

بين قوله: "فإنما أضل على نفسي" وقوله: " فبما يوحي إليّ ربي " وإنما كان يستقيم أن يقال: فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فإنما أهتدي لها كقوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ (١) ، ﴿ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ (٢) أو يقال : فإنما أضل بنفسي ، قلت : هما متقابلان من جهة المعنى لأن النفس كل ما عليها فهو بها ، أعني : أن كل ما هو وبال عليها ، وضار لها ، فهو بها وبسببها ، لأنها الأمانة بالسوء ، وما لها مما ينفعها، فبهداية ربها وتوفيقه ... وهذا حكم عام لكل مكلف ، وإنما أمر رسوله (ﷺ) أن يسنده إلى نفسه ، لأن الرسول إذا دخل تحته مع جلالته محله ، وسداد طريقته كان غيره أولى به " . (٣)

وقول الزمخشري : " وهذا حكم عام لكل مكلف " معناه : أن كل ما ضر النفس وساءها فإنما هو بسببها لأنها الأمانة بالسوء ، وكل ما كان من نفع لها فإنما هو بهداية الله وتوفيقه .

وقوله : " وإنما أمر رسوله (ﷺ) ... الخ هذا هو الموطن الأول والوحيد الذي أشار فيه إلي إسناد الشر إلي النفس ، والخير إلي الله تعالى ، وكلامه يفيد أن هذه الطريقة أولى أن يتخلق بها عامة البشر إنزاما بأدب الخطاب، وكمال التنزيه والتقديس ، فإذا كان الرسول (ﷺ) وهو من هو ، قد التزم هذا الأدب العالي الرفيع ، في خطابه تعالى بأن اسند الشر إلي نفسه والخير

(١) سورة فصلت ٤٦ .

(٢) سورة يونس ١٠٨ .

(٣) الكشاف للزمخشري ٣ / ٢٩٥ .

إليه تعالى فأولى بغيره أن يلتزم بذلك .

— وقد استفيد من الأسلوب ، أن الضلال المفروض إن حصل فبسببه من قبل نفسه ، من إسناد فعل " أضل " إلى ضمير المتكلم ثم مما عقبه من قصر الضلال على الحصول من المتكلم ، وهو أعرق في التعلق به ... ولم يرتكب مثل هذا في جانب فرض اهتدائه ، لأن اهتدائه كان هو الحاصل في الواقع ، وكان شاملاً له ولغيره من الذين اتبعوه ، لأن اهتدائه ملابس لدعوته الناس إلى اتباعه ولأن الغرض من الشرطين مختلف من جهة المعنى لاسيما حين رجح جانب اهتدائه بقوله : " فبما يوحي إلي " على أن المقابلة بين الشرطين ينفذ بها في ذهن السامع أن الضلال من تسويل النفس ، ولو حصل لكان جنائية من النفس عليه ، وأن الاهتداء من الله ، وأنه نفع ساقه إليه بوحيه . (١)

* * *

الموطن الثاني عشر : في الحديث عن نفقة المطلقات في سورة الطلاق في قوله تعالى : ﴿ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ الآية ٧ .

الحديث عن نفقة المطلقات اللاتي لم يرضعن والمطلقات المرضعات ، ويشمل الزوجات كذلك أي : لينفق الزوج على زوجته وولده الصغير على قدر وسعة ، فيوسع إذا كان موسعا عليه ، ومن ضيق عليه فعلى قدر ذلك ، فيقدر القاضي النفقة بحسب المنفق والحاجة من المنفق عليه بالاجتهاد على مجرى

(١) التحرير والتنوير مجلد ٩ جزء ٢٢ / ٢٤٠ .

العادة. (١)

وأسلوب الآية طوى الفاعل وبنى الفعل للمجهول في قوله : " ومن قدر عليه رزقه " لأنه كناية عن التضييق تقول : قَدَرْتُ عليه الشيء ضيقته كأنما جعلته بَقَدْرٍ (٢) وفيه معنى القلة والنقص ، ولذا بناه للمفعول تعليماً للأدب معه سبحانه وتعالى (٣) وجاء بعد هذه الجملة ثلاث جمل هي : " فلينفق مما آتاه الله " ، " لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها " ، " سيجعل الله بعد عسر يسرا " وقد ظهر الفاعل في الجمل الثلاث وهو لفظ الجلالة " الله " لأنها مظاهر يسر وسهولة ، فالجملة الأولى : " فلينفق مما آتاه الله " فيها إيتاء وإعطاء وفضل حتى وإن كان قليلاً ، وفيها بشارة منه تعالى بأنه لا يخلّي أحداً من شيء يقوم به مادام حياً بقوله : " فلينفق مما آتاه الله " مشيراً بالتبويض إلى أن ما أوجبه سبحانه لا يستغرق ما وهبه ، فهو الملك الذي لا ينفد ما عنده ، ولا حد لجوده . (٤)

كما أن الشريعة لم تلزم الزوج بما لا يستطيع بل أمرته بالإنفاق بحسب حاله ، ولا اعتبار بحال الزوجة فيجب لابنة الخليفة ما يجب لابنه الحارس كما يقول الشافعي ، وإن كان القرطبي قد ردّ ذلك استناداً إلى قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (٥) وذلك يقتضي تعلق المعروف في

(١) حاشية الجمل ٤ / ٣٦٠ .

(٢) المفردات للراغب الأصفهاني ص ٣٩٧ .

(٣) نظم الدرر اللبّاعي ٨ / ٣٥ .

(٤) السابق .

(٥) سورة البقرة ٢٣٣ .

حقهما ، وليس من المعروف أن يكون كفاية الغنية مثل نفقة الفقيرة . (١)

— والجملة الثانية : " لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها " فيها من اليسر والسهولة وعدم تكليف النفس إلا ما تقدر عليه ، ولقد فهم البقاعي (٢) من هذه الجملة : " أن من كُفِّ إنفاقا وجد من فضل ما عنده ما يسده من الأثاث الفاضل عن سد جوعته ، وستر عورته " وهذا غاية الفضل والجود والإتمام .

— والجملة الثالثة : " سيجعل الله بعد عسر يسرا " خبر مستعمل في بعث الترجي وطرح اليأس عن المعسر من ذوى العيال ، ومعناه : عسى أن يجعل الله بعد عسركم يسرا وبعد الضيق غنى ، وبعد الشدة سعة يقول الزمخشري (٣) : " سيجعل الله بعد عسر يسرا " موعدا لفقراء ذلك الوقت بفتح الرزق عليهم ، أو لفقراء الأزواج إن أنفقوا ما قدروا عليه ولم يقصروا " .

ولكل هذه الأسباب وغيرها ذكر الفاعل لفظ الجلالة . والله أعلم .

(١) تفسير القرطبي ٧٧/١٠ تح : إبراهيم محمد الجمل — دار القلم للتراث — القاهرة — بدون .

(٢) نظم الدرر للبقاعي ٨ / ٣٥ .

(٣) الكشاف للزمخشري ٤ / ١٢٣ .

الزركشي والتأدب في خطاب الله تعالى

وضع الزركشي في البرهان عنواناً سماه : " التأدب في الخطاب بإضافة الخير إلى الله " وذكر الشواهد التي سبقت والسر الذي ذكره غيره فيها ، وأضاف بعض الشواهد الأخرى وكان تخريجه لها يتسم بأمرين الأول : أن ينظر إليها ببصر نافذ ، وبصيرة ثابتة حيث يتوافق أسلوب الآية مع الظاهرة ولو من وجه خفي ، والثاني : أن يبالغ في تطبيق هذه الظاهرة ، ويدخل فيها ما ليس منها ، فيتكلف التوجيه ، ويتمحل التخريج ، ويوقع نفسه في الخطأ .

أما الأمر الأول فمنه قوله تعالى : ﴿ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ﴾^(١) وقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ جُنُنَهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾^(٢) حيث أسند صرف الكيد إليه تعالى ، ثم أسند السجن إليهم يقول : " ... وتأمل قوله : "فصرف عنه كيدهن" فأضافه إلى نفسه تعالى حيث صرفه ، ولما ذكر السجن أضافه إليهم فقال : " ليسجننه حتى حين " وإن كان سبحانه هو الذي سبب السجن له ، وأضاف ما منه الرحمة إليه ، وما منه الشدة إليهم " .^(٣)

— ثم يقول : " وقريب من هذا قوله تعالى حاكياً عن يوسف — عليه السلام — في خطابه لما اجتمع أبوه وأخوته : ﴿ إِذْ أَخْرَجْتِي مِنَ السِّجْنِ ﴾^(٤) ولم

(١) سورة يوسف ٣٤ .

(٢) سورة يوسف ٣٥ .

(٣) البرهان في علوم القرآن للزركشي ٤ / ٥٩ تح : محمد أبو الفضل إبراهيم ط ثانية — بدون

— دار المعرفة — لبنان .

(٤) سورة يوسف ١٠٠ .

يقول : "من الجب" مع أن الخروج منه أعظم من الخروج من السجن ، وإنما أثار ذكر السجن لوجهين ذكرهما ابن عطية أحدهما : أن في ذكر الجب تجديد فعل إخوته ، وتقريعهم بذلك ، وتجديد تلك الغوائل ، والثاني : أنه خرج من الجب إلى الرق ، ومن السجن إلى الملك ، والنعمة هنا أوضح " ثم يضيف : " وأيضاً لأن بين الحاليين بونا من ثلاثة أوجه : قصر المدة في الجب ، وطولها في السجن ، وأن الجب كان في حال صغره ، ولا يعقل فيها المصيبة ، ولا تؤثر في النفس كتأثيرها في حال الكبر ، والثالث : أن أمر الجب كان بغيا وظلماً لأجل الحسد ، وأمر السجن كان لعقوبة أمر ديني هو منزله عنه ، وكان أمكن في نفسه " . (١)

— وما ذكره الزركشي في الفرق بين الحاليين حال الجب وحال السجن ، يسلم له الوجه الأول والثالث ويردُّ عليه الوجه الثاني ، فهو يقول في الوجه الثاني: "...وأن الجب كان في حال صغره ولا يعقل فيها المصيبة ، ولا تؤثر في النفس كتأثيرها في حال الكبر " والأمر على العكس مما قاله ، لأن حال الصغر حال صفاء الذهن ، ونقاء السريرة ، واجتماع العقل وعدم تشتته بكثرة المشاغل فمواقف الطفولة مركوزة في العقل ، مطبوعة فيه تستدعي وقت الشباب والكبر فتحضر شاخصة ماثلة كأنها بنت اليوم ، ولها تأثير على مسيرة الإنسان ولذا قالوا : "التعليم في الصغر كالنقش على الحجر" ففي حال الصغر التعليم — وغيره — يؤثر ، وينفعل به الصغير ويجد معه نفعاً ، لأن الحواس مجتمعة مفرَّغة ، والعقل ينتظر ما يطبع فيه ، إن الطفل يتأثر بحوادث الطفولة سلبيًا وإيجابيًا ، فإن نشأ سليماً ، ولم تصادفه مواقف تخدش مروءته . أو تنقص من قدره أو تقلل من

(١) البرهان للزركشي ٤ / ٦١ وانظر المحرر الوجيز لابن عطية ٢٨٢/٣ .

قيمته ، شبّ واثقا من نفسه ، قويا في شخصيته ، سويا في أفكاره هادئا في معاملاته . إلى غير ذلك من صفات الشخصية السوية ، والعكس بالعكس . فليس للزرکشي أن يقول إن المواقف في مرحلة الطفولة لا يعقلها الصغير ، ولا تؤثر في النفس كتأثيرها في حال الكبر .

— والمهم أن الأوجه التي ذكرها ابن عطية ونقلها الزرکشي إنما تذكر سر اختيار لفظة " السجن " في الآية دون لفظة " الجب " لمعاني إنسانية عالية ، وآداب سامية ، إذ لم تذكر كلمة " الجب " لأن سيدنا يوسف عليه السلام ، لا يريد أن يجرح مشاعر إخوته ويذكرهم بسيء فعالهم حين ألقوه وهو صغير في غيابة الجب وظلمته ، وما كان من بيعه في سوق العبيد بعد خروجه من الجب ، وهم في موقف اجتماع وفرح، ولمّ الشمّل ، ولذلك اختار لفظة " السجن " لأن النعم فيها أكثر ، والتفضل والإنعام أظهر ، فالخروج من السجن بعد المكث الطويل نعمة كبرى ، ومِنَّة عظيمة، ثم الخروج منه كان إلى الملك والتملك ، إذ جعل على خزائن الأرض لأنه حفيظ عليم .

— وينقل عن السهيلي في كتاب الإعلام أسرار اختيار الألفاظ في بعض الآيات فيقول : " في قوله تعالى حكاية عن موسى — عليه السلام — : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ ﴾ ^(١) وقال للنبي (ﷺ) : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ ﴾ ^(٢) والمكان المشار إليه واحد ، قال : ووجه الفرق بين الخطابين أن الأيمن إما مشتق من اليمن وهو البركة ، أو مشارك له في المادة ،

(١) سورة مريم ٥٢ .

(٢) سورة القصص ٤٤ .

فلما حكاه عن موسى في سياق الإثبات أتى بلفظه ، ولما خاطب محمداً (ﷺ) في سياق النفي عدل إلى لفظ "الغربي" لئلا يخاطبه فيسلب عنه فيه لفظاً مشتقاً من اليُمن أو مشاركا في المادة رفقا بهم في الخطاب وإكراما لهما " . (١)

وهذا معنى غاية في الدقة واللطافة ، ولا يوجد ما يقدر عليه ، وهو منه تعالى تشریف وتكريم وإعلاء لمنزلة سيدنا موسى وسيدنا محمد — عليهما السلام — فهما من أولى العزم من الرسل ... ولذا استحقا هذه المكانة والتشريف .

والأمر الثاني : هو أن يببالغ الزركشي في توجيه بعض الآيات حتى يخضعها لهذه الظاهرة ويدخل فيها ما ليس منها ، فيتكلف التوجيه ، ويتمحل التخريج ويوقع نفسه في الخطأ ، يقول : " ... ومثله قوله تعالى ﴿ أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ ... ﴾ (٣) فحذف الفاعل عند ذكر الرفث وهو الجماع وصرح به عند إحلال العقد " (٤) والناظر في الآية " أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ... " يجد أمرين يناديان بخطأ الزركشي في قوله : " فحذف الفاعل عند ذكر الرفث وهو الجماع " الأول : أن سياق الآية في الحديث عن الصوم وفوائده ومظاهر اليسر والتوسعة فيه ، فقد فرض لتطهير النفوس وتزكيتها : " لعلكم تتقون " وهو أيام قليلة " معدودات " والصوم يسر لا عسر فيه ، فقد نفى عن المؤمنين الصائمين

(١) البرهان للزركشي ٤ / ٦٢ ، والتعريف والإعلام للسهيلي .

(٢) سورة البقرة ١٨٧ .

(٣) سورة النساء ٢٤ .

(٤) البرهان للزركشي ٤ / ٦١ .

الحرص في الدين وأمرهم بالحنيفية السمحة التي لا إصر فيها ، ومن جملة ذلك ما رخص لهم فيه من إباحة الفطر في السفر والمرض^(١) . ثم جاء قوله : "أحل لكم ليلة الصيام الرفث " مظهر يسر وسهولة ، وإباحة وتوسعة ، وذلك نعمة من بين النعم ، الثاني : أن الرفث مع الزوجة ليس شرا بل مأمور به ، يؤجر الإنسان عليه وإن كان مما يُسرُّ به ، ويذكر بالكناية والتلويح ترفعا عن ذكره صراحة ، كما أنه قُرئَ "أحل لكم ... " أي : أحلَّ الله^(٢) وهذه القراءة تناقض كلامه . لأنها أظهرت الفاعل فلا وجه لقول الزركشي : " فحذف الفاعل عند ذكر الرفث " ، ولعل السر في بناء الفعل للمجهول في هذه الآية ونظائرها ، هو القصد إلى إبراز الفعل والتركيز عليه ، فقد جاءت الآية لبيان حكم جديد ، وشرع جديد يبسر على الصائمين : " فقد كان في ابتداء الأمر إذا أفطر الرجل حلَّ له الطعام والشراب والجماع إلى أن يصلي العشاء الآخرة ، أو يرقد قبلها ، فإذا صلاها أو رقد ، حرم عليه ذلك إلى الليلة القابلة فواقع عمر رضي الله عنه - أهله بعدما صلى العشاء فلما اغتسل أخذ يبكي ويلوم نفسه ، فأتى النبي (ﷺ) واعتذر إليه ، فقام رجال واعترفوا بالجماع بعد العشاء فنزل فيه وفيهم " أحل لكم ... " إلخ " .^(٣)

(١) هذا الكلام إشارة إلى قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامٍ مَّسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ) .

(٢) الكشاف للزمخشري ١ / ٣٣٧ .

(٣) حاشية الجمل ١ / ١٤٩ .

وآية النساء : " ... وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم ... " جاءت في سياق تحريم المحارم : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ ثم أخبر تعالى عن حل غير هذه الأصناف فقال : ﴿ وَأَحْلَلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ ﴾ وقرئ بالبناء للفاعل والمفعول فقرأ أبو جعفر وحمزة والكسائي وخلف وحفص بضم الهمزة وكسر الحاء " أحلَّ " وقرأ الباقر بفتحها^(١) وعلى قراءة بناء الفعل للفاعل : " وأحلَّ لكم " يكون الفاعل في حكم المظهر وعليه يكون قول الزركشي : " وصرَّح به عند إحلال العقد " لا يتمشى مع أسلوب الآية، ومجانب للصواب ، حتى على قراءة بناء الفعل للمفعول : " وأحلَّ لكم " لا ينبغي أن يكون التوجيه كما ذكره لأن إحلال التزويج وجوازه إنما هو نعمة وتوسعة من الله تعالى لعباده فعلى قوله كان ينبغي أن يظهر الفاعل ولا يطوى ، ويضيف : " وقال تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمُيْتَاتُ وَالِدَافُ وَالْحَمُّ الْخَنزِيرُ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾^(٢) فحذف الفاعل عند ذكر هذه الأمور " .^(٣)

(١) تفسير السيوطي بهامش حاشية الجمل ٣٧٢/١ ، والنشر في القراءات العشر ١٨٧/٢ .

(٢) سورة المائدة ٣ .

(٣) البرهان للزركشي ٤ / ٦١ .

— وقوله هذا لا يصح أن يقال في أسرار الإعجاز القرآني لأوجه كثيرة

منها :

• أن تحريم هذه الأشياء ، ليس شرا بل هو عين الخير والنعمة ، فالميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، فيها من الإضرار والمفاسد ، مما كشف عنه العلم الحديث ، وأظهر أنها مليئة بالجراثيم جالبة للأمراض ففي تحريمها خير كثير ونفع جليل .

• صيغة المبني للمجهول وحذف الفاعل عمت التحليل الذي هو نعمة ، وعتت التحريم الذي هو نعمة أيضاً وكان توجيه الزركشي فيها واحداً ، ومخالفاً لواقع الآيات ، مما ينادي بخطئه ، ولو أنه اتجه إلى سر التركيز على الفعل لأهميته ، والرغبة في الإيجاز ، ومعرفة وشهرة وقدرة وعظمة الذي أحل والذي حرّم — سبحانه — لكان أولى مما ذكره .

• وإذا كان الزركشي قال في " حرمت عليكم " أن حذف الفاعل عند ذكر هذه الأمور ، لأنها شر كما يفيد كلامه ، فماذا يقول في قوله تعالى في أول السورة : " أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ " فقد أخبر بحل بهيمة الأنعام ، وهي نعمة ولكنه طوى الفاعل فيها !!؟

— ويقول في قوله تعالى : ﴿ قَالَ سَتَنْظُرُونَ أَصَدَقْتَهُمْ أَمْ كُنْتُمْ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾^(١)

خاطبه بمقدمة الصدق مواجهة ، ولم يقدم الكذب ، لأنه متى أمكن حمل الخبر

(١) سورة النمل ٢٧ .

على الصدق لا يعدل عنه ومتى كان يحتمل ويحتمل قدم الصدق ، ثم لم يواجهه بالكذب بل أدمجه في جملة الكاذبين أدبا في الخطاب " (١) ، فقد جعل الزركشي عدم مواجهة سيدنا سليمان - عليه السلام - للهدد بالكذب بقوله : " أصدقت أم كذبت " والعدول عنه إلى ما عليه ظاهر النظم من أدب الخطاب . مع أن ما عليه الآية أبلغ في وصف الهدد بالكذب من قوله : " أصدقت أم كذبت " التي فيها مواجهة صريحة بالكذب ، فلو واجهه بالكذب لكان الأسوب أقل بلاغة مما عليه أسلوب الآية ، لأن قوله : " أم كذبت " يصدق بمرة واحدة في الكذب أما قوله : " أم كنت من الكاذبين " فيه دلالة على أنه عريق في الكذب ، مجبول عليه راسخ فيه، ولا يكذب على سليمان مع ما فيه من العظمة بالنبوة والملك الذي لم يكن لأحد من بعده إلا راسخ القدم في الكذب ، ولا يقبل أن تكون المبالغة في وصفه بالكذب ، فيها من الأدب في الخطاب ما ليس في الأسلوب الأقل بلاغة ، ويوضح الزمخشري بلاغة أسلوب الآية في وصفها للهدد بالكذب فيقول : " ... وأراد أصدقت أم كذبت ، إلا أن " كنت من الكاذبين " أبلغ ، لأنه إذا كان معروفا بالانخراط في سلك الكاذبين، كان كاذبا لا محالة ، وإذا كان كاذبا اتهم بالكذب فيما أخبر به فلم يوثق به " (٢) .

— والمهم أن الزركشي وقف على هذا المعنى ، واستشفه من كثير من الآيات القرآنية وجعل التأمل في أمثال هذا واجب ، وهو مطرد في فصاحة القرآن

(١) البرهان للزركشي ٤ / ٦٣ .

(٢) الكشاف للزمخشري ٣ / ١٤٥ ، وراجع نظم الدرر للبقاعي ٥ / ٤٢٢ ، والبحر المحيط

الكريم ، وسواء أصاب في التوجيه أم أخطأ فهو مأجور على كل حال .
كما أن هذه الظاهرة مطردة في فصاحة القرآن الكريم ، وقف عندها
العلماء ، وحددوا مواضعها ، وأبرزوا شيئاً من أسرارها ، ويبقى الكثير من
الأسرار تحت هذه الظاهرة وأمثالها في علم الله المكنون .

الخاتمة

الحمد لله العلي القدير والصلاة والسلام على البشير النذير وعلى آله
الطيبين الطاهرين وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد

فبعد أن تملئ الفكر وتغذي النظر بالمعايشة والتأمل للآيات القرآنية محل
البحث والدراسة خرج بالنتائج التالية :

أولاً : أن إسناد الخير إلى الله تعالى والشر إلى النفس في خطاب الله تعالى ،
ظاهرة قرآنية أجمع المفسرون عليها ، ولم يشذ منهم أحد مع تفاوت الحديث
عنها عند كل مفسر ، فمنهم من تتبع مواطنها ، وذكر كثيراً من أسرارها ،
وأفاض القول فيها ، وهم جُلّ المفسرين ومنهم من ذكرها بإشارة عابرة ، ولمحة
خاطفة في مرة واحدة وهو الزمخشري في كشافه^(١).

ثانياً : اتفق المفسرون على أن من أهم أسرار هذه الظاهرة هو : التأدب في
خطاب الله تعالى ، وأن هذه الدلالة تبعية تُستشف من السياق وقرائن
الأحوال .^(٢)

ثالثاً : كما أضاف بعض المفسرين بعض الأسرار إلى السر السابق منها :

أ - أن الله تعالى هو المنفرد بالنعمة ، فأضيف إليه ما هو منفرد به ، وإن أضيف
إلى غيره فلكونه طريقاً وسبباً في إيصال النعمة .^(٣)

(١) انظر البحث ص : ٢٦ .

(٢) انظر البحث ص : ٥ .

(٣) انظر البحث ص : ١٤ .

- ب - في حذف فاعل الغضب في قوله تعالى : ﴿ غير المغضوب عليهم ﴾ من الإشعار بإهانة المغضوب عليه وتحقيره وتصغير شأنه . (١)
- ج - في هذا الأسلوب تعليم للعباد كيف يمدحون ، بأن يذكروا أفضل الخصال ، ويعددوها ، ويتحاشوا سيئ الخصال فلا يذكروها . (٢)
- د - هذا الأسلوب يدل على أن رحمة الله سبقت غضبه ، لأن الكريم الحي عند الرحمة يظهر نفسه ، وعند الضر لا يذكر نفسه . (٣)
- هـ - هذا الأسلوب يدل على أن النفس منقادة نحو الباطل ، ترتمي في أحضانه بيسر وسهولة ، وتحتاج إلى هادٍ ومعالج يدلها على طريق الهدى والصلاح ، إذ لا تنقاد إليه بسهولة . (٤)
- و - عرض الزركشي لهذه الظاهرة في القرآن الكريم ووقف عند آياتها ، وكان ثاقب النظرة ، قوي الملاحظة في كثير من المواطن ، لكنه أخطأ الطريق ، وحاد عن القصد ، عندما بالغ في تطبيقها ، وأدخل فيها ما ليس منها . (٥)
- والحمد لله في الأولى والآخرة ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً .

(١) انظر البحث ص : ١٤ .

(٢) انظر البحث ص : ٢٠ .

(٣) انظر البحث ص : ٤٨ .

(٤) انظر البحث ص : ٥٣ .

(٥) انظر البحث ص : ٥٨ .

المصادر والمراجع

١. البحر المحيط لأبى حيان بعناية الشيخ زهير جعيد ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م
دار الفكر - بيروت .
٢. البرهان في توجيه متشابه القرآن للكرمانى تح : عبد القادر عطا ط
أولى ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م - دار الكتب العلمية - بيروت .
٣. البرهان في علوم القرآن للزركشى تح : محمد أبو الفضل إبراهيم ط
ثانية - دار المعرفة - لبنان - بدون .
٤. التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور - دار سحنون - تونس - بدون.
٥. الخصائص لابن جنى تح ، محمد على النجار - المكتبة العلمية -
بدون.
٦. الدر المصون للسمين الحلبي تقديم الدكتور / أحمد محمد صبره
١٤١٤هـ / ١٩٩٤م ، دار الكتب العلمية - بيروت .
٧. الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض تح : عامر الجزار
١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م دار الحديث - القاهرة .
٨. المثل السائر لابن الأثير تح : الشيخ كامل محمد عويضة ط أولى
١٤١٩هـ / ١٩٩٨م دار الكتب العلمية - بيروت .
٩. المحرر الوجيز لابن عطية تح : عبد السلام عبد الشافي محمد ط
أولى ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م ، دار الكتب العلمية - بيروت .

١٠. المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني راجعه وائل أحمد عبد الرحمن المكتبة التوفيقية - بدون .
١١. الموافقات في أصول الشريعة للشاطبي شرح الشيخ عبد الله دراز ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م دار الحديث القاهرة .
١٢. النشر في القراءات العشر لابن الجزري ، قدم له الأستاذ علي محمد الصباغ وخرج آياته الشيخ زكريا عميرات ط أولى ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م دار الكتب العلمية - بيروت .
١٣. الكشاف للزمخشري دار الفكر للطباعة والنشر - بدون .
١٤. أسباب النزول للسيوطي تحقيق : حامد أحمد الطاهر ط : أولى ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م دار الفجر للتراث - القاهرة .
١٥. أسباب النزول للواحي تح : أيمن صالح شعبان ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م دار الحديث القاهرة .
١٦. تفسير الألوسي " روح المعاني ... " تح : طه عبد الرؤوف سعد ، ط أولى ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م - دار الغد العربي .
١٧. تفسير ابن كثير - دار المنار - بدون .
١٨. تفسير أبي السعود " إرشاد العقل السليم ... " تح : عبد القادر أحمد عطا ، مطبعة السعادة - بدون .
١٩. تفسير الرازي " مفاتيح الغيب " ط أولى ١٤١٢هـ / ١٩٩١م دار الغد العربي .

٢٠. تفسير القرطبي تح : إبراهيم محمد الجمل - دار القلم للتراث
القاهرة - بدون .
٢١. حاشية الشيخ الجمل على تفسير الجلالين - الحلبي - بيروت .
٢٢. حاشية الشيخ زاده على تفسير البيضاوي - المكتبة الإسلامية
تركيا - بدون .
٢٣. حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي ضبط الشيخ عبد
الرزاق المهدي ط أولى ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م - دار الكتب العلمية -
بيروت.
٢٤. دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم دراسة بلاغية
للباحث . بحث منشور في مجلة كلية اللغة العربية بأسبوط العدد
السادس والعشرون ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م .
٢٥. دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني - قراءة محمود شاكر
ط ثانية ١٤١٩هـ / ١٩٨٩م - الخانجي - القاهرة .
٢٦. شروح التلخيص دار الكتب العلمية - بيروت . بدون.
٢٧. عمدة القاري شرح صحيح البخاري للإمام بدر الدين العيني ط أولى
١٤٢١هـ / ٢٠٠١م ، دار الكتب العلمية - بيروت .
٢٨. فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ط أولى
١٤١٩هـ / ١٩٩٩م - دار المنار .
٢٩. في ظلال القرآن لسيد قطب الطبعة الشرعية الخامسة والثلاثون

١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م - دار الشروق .

٣٠. لسان العرب لابن منظور - دار المعارف - بدون .

٣١. مدارح السالكين لابن قيم الجوزية تح : عماد عامر ١٤٢٤هـ /

٢٠٠٣م دار الحديث - القاهرة .

٣٢. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي تخريج عبد الرزاق

غالب المهدي ط ثلاثة ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م دار الكتب العلمية بيروت .